جاسوس في كردستان العثمانية

رحلات هنري بندييه إلى بلاد الكرد والآثوريين

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب:	جاسوس في كردستان العثمانية
التأليف:	هنري بنديه
ترجمة وتقديم:	الدكتور/ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي - د. أميمة حسن المهدي
المراجعة اللغوية:	عبد القادر أمين
موضوع الكتاب:	أدب الرحلات
عدد الصفحات:	168 صفحة
عدد الملازم:	10.5 ملزمة
مقاس الكتاب:	17X24
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	2019/25118
الترقيم الدولي:	978-977-278-781-4

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

المركزُ الثقافيّ الآسيوي

مشروعُ الرّحلات

(١)

جاسوس في كردستان العثمانية

رحلات هنري بنديبه إلى بلاد الكرد والآثوريين

ترجمة وتقديم

الدكتور/ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي   الدكتورة/ أميمة حسن المهدي

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى عبد الله حسام الشرقاوي

بطلِ أطفال العالم في الإزعاج

لوْلاك لكان هذا الكتابُ...

للقرّاء أمتع، وللباحثينَ أقنع، وللمترجم أبدع

مشروعُ الرّحلات

الرّحلة هي متعةُ التّاريخ وتاريخُ المتعة، والرحلة هي لذّةُ المشقّة، وعين الجغرافيا، ومنظارُ الفلك، ومسبارُ الأنثروبولوجيا، وجسرُ الخبرات بين الأمم، وهمزة الوصْل بين الشّعوب، والرحلةُ هي سفير السّلطان، ووثيقةُ المؤرّخ ومكتبة العالم وحنكةُ السياسي ورافدُ الأديب الذي لا ينضب.

ويكأنّ الإنسان مخلوقٌ رحّالة، من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى أخرى، يعيش حياته متنقّلًا عبْر الزّمان والمكان، يرتّادُ الآفاق، ويخترقُ الأعماق، ما بين إسراءٍ بالجسد، ومعراجٍ بالرّوح، وسياحةٍ بالعقل.

ولا أظنّني مبالغًا فيما وصفت؛ فقد بدأتِ الرّحلة منذ برهةٍ وجيزة تعود لتكشف عن أهمّيّتها في المجال البحثي الأكاديمي، وترتقي مرّةً أخرى مكانتُها التي تبوّأتها من قبْل كإحدى رائداتِ العلم؛ مصدرًا ومنهاجًا.

فالرحلةُ تمنح الباحثَ في التّاريخ والجغرافيا والسّياسة والاقتصاد والأنثروبولوجي والآثار... وغيرها من مجالات العلم، تمنحُهم مصدرًا ثريًّا وواقعيًّا نابضًا بالحياة، بعيدًا عن رتابة كتب الوقائع، وملَلِ كتب الحوليّات، وجفاف كتب التّاريخ الرسمي، ونفاقِ المؤرّخين المكلّفين، وجمودِ جامعي الأخبار وناقلي الروايات.

الرّحلة- إذا أحسنَ القارئ قراءتها والكاتبُ تدوينها- تصيرُ حياة ثلاثيّةَ الأبعاد يحياها القارئ والمستمع، فتعطيه العلمَ مع المتعة، والخبرةَ مع المعايشة، والدقّةَ مع الواقعية، والعمقَ مع الثّراء.

ويبدو الآن الاتّجاهُ قويًّا لدى الباحثين والمحقّقين في الاعتماد على كتب الرّحلات، سواء العناية بتحقيقها وإخراجها من مظانّها، وسواء بالاعتماد عليها كمصدرٍ

أكاديمي، وهو ما يُعطي قفزةً نوعيّة في البحث العلمي، شريطة الانتخاب الواعي والاستشهاد الممحّص، والاستنتاج المنطقي، والنّظرة الفاحصة، والاستقراء المتأنّي المتدرّج، الذي يصفّ الجزئيات بعضًا إلى بعض، فيرسم منها لوحة فُسيفساء، ولا يفعل العكس، فيعمدُ إلى اختلاق التّعميمات من الأحداث الجزئية، ولا يعتمدُ على الغثّ في إدامه، ولا الهزيل في طعامه.

وعلى قدر ما تحملُ الرّحلة من أهمية، لا تخلو أيضًا من زلّات، قد تكثر فتصبح مضلّلات، إذ نرى بعضَ الرّحالة يأتي إلى قطر غريب عن مشاربه، وهو يحملُ في جُعبته خلفيّته الثّقافية والعقائدية، محبًّا أوْ كارهًا، عميق الثقافة أو ضحْلها، فاحصَ النّظرة أو سريعَ الانفعال، متقلّبَ الآراء والأحوال، بل ترى البعض يكذب مدّعيًا أنّه رأى ما لم يره الآخرون، واطّلع من الأسرار على ما لم يستطعْه غيره، فيستجلبُ إعجابَ القارئ والمستمع على حساب الحقيقة والواقع.

لكنْ بين أهمّية الرّحلة وخطورتها، يقف الباحث المدقّق صاحبُ النظرة الفاحصة، فيستشفّ الحقائق، ويستنبط الأسرار، ويستنتجُ ما وراء الأحداث، ويقرأ ما بين السّطور.

ونحن في «**المركز الثّقافي الآسيوي**» نحاول من خلال «**مشروع الرحلات**» أنْ نقدّم مجموعةً منها في شتّى المناطق والعهود لتغطية أكبر مساحة ممكنة في الزمان والمكان لتكون حلقاتٍ مسلسلةً في التاريخ، وخبراتٍ متوارثةً في الجغرافيا، ومعلوماتٍ متراكمةً في غيرها من العلوم، ومنبعًا ثريًّا وغيرَ تقليديّ في البحث العلمي..

ومن خلال هذا المشروع نفتح البابَ للتعاون مع الباحثين والمحقّقين والمترجمين للتّواصل والتّعاون؛ كي نسهمَ- جميعًا- في السّعي نحو خطوة جديدة في طريق التّقدم.

والله وليّ التوفيق.

المقدّمة

الرّحالة الفرنسي المحترف (Henery Binder) يقوم برحلته إلى بلاد ما بين النّهرين أو ميزوبوتاميا، كما يعرفها جغرافيّو ورحّالة أوروبّا، وتجذبه هذه المرّة- من رحلاته- منطقةٌ لم يتجاسرِ الكثيرون على الرّحلة إليها، وهي كردستان العراق، تلك المنطقة الجبليّة الحدوديّة التي تطلّ الآن على حدود سبعِ دولٍ هي: العراق وإيران وأذربيجان وتركيا وأرمينيا وسوريا وجورجيا.

وكانت هذه المنطقة، منطقة حوض نهر الزاب الأعلى- موطن الكرد والآثوريّين (السّناطرة)- تمثّل تحدّيًا خطيرًا أمام الرحّالة الأوروبيّين لقلّة المعلومات عنها، ولوعورة مسالكِها، والخوف المتوارَث من سكانها الجبليّين القساة.

وبشكلٍ مباشر تقوم الجمعيةُ الجغرافيّة الفرنسية، وكذلك القسم الجغرافي في وزارة الحربيّة الفرنسية بإرسال هنري بندييه إلى المنطقة في مهمّة جغرافية وأثرية، لكنّها في الأصل مهمّةٌ عسكرية، إذْ كان مديرُ القسم الجغرافي في وزارة الحربية هو نفسه المسئولَ عن الجمعيّة، الجغرافي الجنرال (F. Pirees) ف. بيرييه، وقد أكّد الرحّالة كلامنا ذلك بإهدائه الرّحلة إلى الجنرال المذكور، لكنّه قال في مقدّمته إنّ رحلته كانت لصالح وزارة التربية.

لم تستغرقِ الرّحلة وقتًا طويلًا؛ إذْ بلغت أربعةَ أشهرٍ فقط من سنة ١٨٨٥م، وبدأ خطّ سيْرها من العاصمة الفرنسيّة باريس- موطن المؤلّف- إلى العاصمة العثمانيّة استانبول، إلى الولايات الأناضوليّة الشّرقية ذات الكثافة المسيحيّة، متوغّلًا في بعض مناطق القوقاز وأذربيجان، ثمّ بلاد فارس، وبلدان العراق العربي/ العثماني.

وكانت أبرزُ المحطّات التي مرّ بها هي:

القسطنطينيّة/ استانبول- تفليس (تبليس)- يريفان- تبريز- أورمية- وان (فان)- جولميرك- الموصل- بغداد- كرمنشاه- طهران- قزوين- كيلان (جيلان)- باكو- القوقاز- باريس.

نشرتِ الرّحلةُ في باريس سنة ١٨٨٧م بعنوان:

(Au Kurdistan En Mesopotmia et en Perse).

وجاءت في نحْو أربعمائة وخمسينَ صفحة، بدأنا بترجمةِ ما يخصّ المنطقة العربيّة منها، وهي العراق، على رجاء أنْ نواصل ترجمة بقيّة الرّحلة في جزأين آخرين، يختصّ أحدُهما بالمناطق الفارسيّة، والآخر بالمناطق العثمانية.

كانت لغةُ الكاتب بسيطةً غير معقّدة في أسلوبها، لكنّها كثيرة التّعقيد والشوفينية في تعصّبها تجاه الشرقيّين والعرب والمسلمين والعثمانيّين.

الجُمل الفرنسية للكاتب قصيرةٌ وبسيطة، لكنّها دقيقة تحملُ ملاحظاتٍ ذكية، وإنْ كان في الكثيرِ من معلوماته جدّة وغزارة دعمتها الصّورُ والرّسوم، إلّا أنّ فيها أحيانًا كثيرةً بعدًا عن الموضوعية نتيجةَ تحامله.

وأخيرًا.. فالرّحلةُ تحمل مادّةً خصبة ربّما بعضها مازالت معلوماتٍ بكرًا لهذه المنطقة في فترةٍ تاريخيّة مهمّة لها وللعالم العربي والدّولة العثمانية، فهي تمثّل ركنًا من القاعدة المعرفيّة التي بنتْ عليها الدّولُ الاستعمارية خطّتها التآمريّة لصناعة «الشّرق الأوسط الجديد» الموروث من تقسيم تركة «رجل أوروبّا المريض»، أو الدولة العثمانية، قبل أن تكتملَ الملامحُ الأولى للمسألة عقبَ توقيع اتفاقية سايكس/ بيكو.

HENRY BINDER

AU KURDISTAN

EN MÉSOPOTAMIE ET EN PERSE

(Mission scientifique du Ministère de l'Instruction publique)

OUVRAGE

Illustré de 200 dessins imprimés en phototypie par QUINSAC

D'après les photographies et croquis de l'auteur

Et d'une Carte en 4 couleurs des frontières turco-persanes



PARIS

MAISON QUANTIN

COMPAGNIE GÉNÉRALE D'IMPRESSION ET D'ÉDITION

7, RUE SAINT-BENOIT

1887



HENRY BINDER

رحلةُ هنري بنديه إلى العراق

الفصلُ الأوّل

محتوياتُ هذا الفصل:

وادي وقرية جولميرك، الإكراميّة الفرنسية والإكراميّة التركيّة (البقشيش)، زيارة الوالي، الزيّ الكردي، جولة في القرية، السّفر، قافلتنا (الكروان) وحماتنا، الزاب الكبير، عبورُ جسر، وادي تال، الحقولُ والزّراعة في الجبال، قرى كردية (بيشرية، رابات)، نهرُ (الأنتراد)، قبور سريانية، توروب، جيسي وبيرج، بيلات- سو، أعمال فنيّة مهمَلة، دال، تحمّس السّكان، نصل إلى الزاب الكبير، مخيّم على الضفاف، الجنينة، غابة كستناء وبلوط، المن، وادي (كلى) العمادية، بساتين العمادية.

تقعُ مدينة (جولميرك) في عمقِ أخدودٍ واسع، ويحيطها جبلٌ شاهقُ الارتفاع من الجنوب الشّرقي، أمّا من الجهات الأخرى فيُحيطها انحداراتٌ أكثرُ جَمالًا.

وتنسابُ المياه من هذه الجبال في أربعةِ جداول، وتلتقي في جدولَيْن، حتّى تصلَ إلى جنوب الوادي، فتنساب من خلال فتحةٍ متعرّجة لأخدود ضيق، محفور في الصّخر، ومطلّ على الجبل، وتنتشر مجموعات من الأشجار في أنحاء الوادي، ويقام بينها بعض البيوت.

وفي الزّاوية الجنوبية من وادي جولميرك، وعلى صخرة صلبة طولها ثلاثمائة متر، وعرضُها ثمانون أو مائة متر، تقع مدينة حقيقيّة، ولكنّ نصفَها مهمل، وتضمّ حوالي مائة منزل، وكان بها في السّابق قلعةٌ تسيطر على الصّخرة، ويقع بالقرب منها الآن جامعٌ يشبه حصنًا صغيرًا، كما أنّه يشبه الذي رأيناه في مدخل وديان (برديك) الضيقة.

بمجرّد وصولنا المدينة، سألناهم عن مكانِ مسكن القائمقام، وعندما ذهبنا إليه لم نجدْه في المنزل، ووجدْنا هناك ضابطًا تحت إمرته عشرةُ رجال، فأخبرته أنْ يبلغ الوالي أنّني سآتي لزيارته في صباح اليوم التّالي، وأخبرته- أيضًا- أنّني أبحث عمّن يستضيفني، فأخذني إلى مسكنٍ يقيم به بعضُ الكرد من الأرمن والسريان.

يقعُ هذا المسكن أو المحلّة خارجَ المدينةِ وسط الحقول، على جبلٍ صغير يشغل وسط الوادي تقريبًا. أمّا المنزل الذي سنبيتُ به فهو ذو سقفٍ مشترك مع عدّة بيوتٍ أخرى، ويتكوّن من غرفةٍ يسبقها مدخل، وننزل إلى البيت الموجود بالأسفل بواسطة سلّم.

وهذه الغرفةُ الصّغيرة والمنخفضة قذرةٌ جدًّا، فتجد أنّ جميع أنواع الحشرات يقطنون بها، ورغم ذلك أقمنا بها.

وبينما كنّا نجفّف ثيابنا، كان يوفان يقوم بطهي دجاجة مع قرنبيط وأرز، وبدا لنا من الرّائحة الذّكية أنّ الطّعام شهيّ ولذيذ، حيث أنّنا منذ خمسة أيّام لم نتناول لحمًا طريًّا، وهذه هي اللّيلة الثانية عشرة التي ننام فيها بكامل ملابسنا على أسرّة المخيمات.

السكانُ المحيطون بنا طيبون ولطاف، أو هذا ما بدا عليهم فقط، وجاء الحرس ليطلبوا منّا إكرامية (بقشيش)، وبما أنّهم كانوا خدومين؛ فقد أعطيتهم إكراميّةً جيدة أكثرَ من المعتاد، ولكنّهم على العادة لم يقبلوا بها، وأعادوا المبلغَ قائلين إنّهم يفضّلون عدمَ أخذها، وقد اعتدْنا نحن أيضًا على هذا التصرّف، فهم في هذه المواقف يذهبون ثمّ يعودون بعد قليل مُطالبين بالمال، ويبدو أنّ هؤلاء الناس لم يعتادوا على أنْ يعامَلوا بكرم، حيث إنّ الأتراك الذين يسافرون بُخلاءُ جدًّا، فلا يدفعون أي مبالغ لهؤلاء الفقراء المساكين سوى ضربهم بالعصا، ولكنّها رغم ذلك أفضلُ من الإكراميات التي لدينا؛ لأنّها ليست نفس الإكراميات التي نعطيها من حينٍ إلى آخر، إنّما ضرباتُ السّياط والعصيّ تجعلهم يحترموننا ويطيعوننا بشكل أفضل.

٣٠ أيلول (سبتمبر ١٨٨٥):

كانت الأمطارُ تهطل طوالَ الليل، وهبّت رياحٌ شديدة، ولحُسن حظّنا أنّ سقف غرفتنا لا يسمح بتسرّب الماء.

وفي ٣٠ أيلول، جاء سواس البغال لأعدادِ وتجهيز اللّازم، وقمت بتكليف سيمون بالذّهاب إلى السّوق لمقابلة بعض أصحاب الحيوانات الذين يقبلون بتوصيلنا إلى العمادية، ولكنّه عاد دون أن يجد أحدًا.

أقبلَ علينا الوالي برفقةِ رئيس الحرس، فقدمنا له لوحًا فوقَه بساط فرو ليجلس عليه ككرسي، وقام مثلَ غيره بتقديم أشدّ العروض صرامة، وذلك عندما طلبنا منه بعضَ الحرّاس لمرافقتنا، فأجاب قائلًا: (الفصيل كلّه- أعني عشرة خيّالة وعشرين مشاة- تحت إمرتكم، وسنرافقكم نحنُ بأنفسنا إذا أحببتم).

وقال- أيضًا- إنّه سيرسل لنا أصحابَ البغال الذين يعرفهم، وبعد أنْ قدّم يوفان الشّاي انسحب الضّيوف. كان الطّقس سيئًا، ونحن منهمكون بترتيب لوازم كثيرة في كوخنا، وبينما كنّا ننظّم ملابسنا وأمتعتنا، جاءوا إليّ بأزياء وأقمشة كنت قد طلبتها بالأمس، وكنتُ قد اشتريت من قرويّ زيَّ الأعياد، وعندما أرسلتها من بغداد إلى فرنسا سُرقت من قِبَل المكوس (الجمارك) التّركية، هذا إلى جانب بعض الأشياء الأخرى الغالية، ومن بينها صندوقُ جماجم، كنت قد أخرجتُها في الليل من أحد المقابر الكرديّة بخطورةٍ بالغة، وكنت قد خصّصتها للمتحف الطبيعي في (باريس).

أصبح الجوّ صافيًا فانتهزنا هذه الفرصةَ لمشاهدة أنحاء مختلفة من الوادي، وحتّى أرسم شكلًا لهذا الوادي الغريب، وأنا مُحاط بعشرين شخص يراقبون الخطوط الهيروغليفيّة التي أرسمها. عاد يوفان حزينًا لأنّه لم يجد خروفًا، ثمّ خرجنا مع سيمون للتجوّل بأرجاء القرية المكوّنة من شارع مُحاط ببيوتٍ صغيرة، ورأينا مسجدًا يكاد يكون متهدّمًا، وسوقًا عبارة عن فناءٍ مربّع الشّكل مُحاط بدكاكين صغيرة يقف في مقدّمتها باعة فقراء.

سقطَ المطرُ مرّة أخرى، وذهبنا نردّ الزّيارة للوالي، وعند وصولنا قام الحرس باستعراض السّلاح، وأكّد القائم مقام (الوالي) وعودَه التي قالها في الصّباح،

وبعد ذلك تبادلنا أحاديثَ مملّة، وبعد تناول القهوة التي لا بدّ أن نشربها انسحبنا في هدوء إلى كوخنا.

أقبلَ عليّ بعضُ الأشخاص طالبين بعضَ النّصائح، وعندما سألت أحد المرضى الذي يشكو من بطنه أين الألم؟ نظر إليّ المترجم، وقال: وكيف لا يعرف أين الألمُ وهو طبيب؟!

فانفجرْنا جميعًا من الضّحك، إذْ لم يعدْ إلّا القليل، وأصبح طبيبًا رغماً عنّي، ولا يكفيني ذلك، بل أنا مُجبرٌ على تشخيص المرض من النّظرة الأولى.

بعد العشاء، قمنا بتقسيم الغرفة حتّى نبدّل ورقَ التصوير، ونجهّز أمتعتنا، حيث إنّ البغال ستكون عند بابنا في السّاعة السّادسة من صباح الغد. ورغم التعب والإرهاق الذي مررْنا به، إلّا أنّنا مازلنا نتمتّع بنشاطنا، ونحن في قلب هذا الوادي الكريه، الذي لم يحاولِ الوصولَ إليه سوى القلائل من الأوروبيّين، وكنّا نريد التعرف إليه بأكبر قدرٍ ممكن.

لقد دُهشنا عند مشاهدةِ جَمال المناظر، وبدأتْ فلسفتنا تتحقّق بما يكفي رغم مللِ السّفر، والاقتناع بأنّ الأتراك مضجرين بشكلٍ لا يطاق.

١ تشرين الأول (أكتوبر):

في السّاعة السّادسة صباحًا، كان أصحابُ البغال حاضرين، ويبدو على ملابسهم أنّنا سنلاقي اهتمامًا كبيرًا منهم، وقد جاءونا بسلّةِ عنب رائعة، وكانوا يرتدون أزياءَ رائعة جدًّا؛ عبارة عن زيّ قَبَلي يتكوّن من: قلنسوة رفيعة من الفرو الأبيض (كيولوس)، وسترة صغيرة (قيصرية) وبنطلون عريض المقاييس (سروال).

وقد اندهشنا كثيرًا عندما رأينا بدلَ الحماية التي طلبناها من الوالي مجرّد جنديّين بسيطين، ولا يحملون بنادق، ويبدو أنّهم مُسْتعطيان، رغم الوعود الكثيرة التي أظهرَها لنا القائمقام.

وعندما رأيتُهم ذهبت إلى الوالي فأخبروني أنّه مريض، فاتّجهت إلى المخفر الذي يتولّى مهمّة المعسكر هناك لأشكو له المشكلة، ولكنّني لم أحصل سوى على الجواب الآتي: (إذا أراد الكرد منعَكم من السّير أو سرقتكم، فلسنا نحن مَن نستطيع منعَهم، لذا فمِن غير المجدي أنْ نضحّي برجالنا).

ورغمَ إلحاحي عليهم، إلّا أنّهم رفضوا أنْ يزوّدوني برجلٍ واحد آخر، ولكنّهم ألزموا أحدَ الجنديّين بحمل بندقيتِه، ولم يزودوه بأيّ عتاد.

غادرنا المدينة برفقةِ هذيْن الجنديّين اللذيْن سيكونان عبارة عن خادميْن لا حارسيْن، خرجنا من وادي جولميرك من المعْبر الجنوبي الغربي المُحاط بالسواقي، ورأينا طريقًا يُشبه سلّمًا متعرّجًا محفورًا في الصّخر من قِبَل السّجناء الكُرد إثر انتفاضةٍ لهم، وتصعد البغال وتنزلُ في هذا الممرّ الضّيق بصعوبة، وكانت جدران هذا المضيق تضخم وتعكسُ أصوات صراخِ أصحاب البغال وصوتَ سقوط المياه، وحوافرَ الحيوانات عندما تنزلق وتتماسك؛ ممّا يزيد من متعة الرحلة.

وصلنا إلى أسفلِ الصّخرة دونَ وقوع أيّ حوادث، فوجدنا مجرًى مائيًّا، وبعد دقائق دخلنا وادي الزاب الكبير (الأعلى).

وقد لاحظنا أنّ النّهر في الوقت الحالي ليس سوى غديرٍ أصفر، يبلغ عرضه بضعةَ أمتار، يمتدّ هذا النهر وسط جبالٍ شاهقةِ الارتفاع، اجتزنا هذا النّهر بواسطة جسرٍ راقص مكوّن من حصائر صفصافٍ وأغصان متشابكة. أولًا عبرَه أحدُ الرّجال، ثمّ لحقه اثنان، ثمّ بغلٌ غير محمّل، وأخيرًا بغلٌ محمّل.

وهناك طريقةٌ خاصّة يتّبعها هؤلاء الرجال في الإمساك بحيواناتهم عند عبور الممرّات الصّعبة؛ كالتالي:

يمسكُ أحدُهم بالرأس، ويمسكُ الآخرُ بالذّيل، حتّى يكون كلاهما مستعدًّا لإمساك الحمولة باليدِ الأخرى في حالة إذا انْهارت الأرض التي يضعُ عليها الحيوان قدميْه بسبب ثقل وزنه.

اتّبعنا طريقَ الماعز على الضّفة اليسرى من الغدير، ويتطلّب عبور هذا الطريق ثباتَ أقدام البغال، أمّا الجياد فلا تستطيعُ اجتيازه. وهذه الضّفاف مكسوة بالعوسج، وبكروم بريّة تتسلّق الصّخور، أحيانًا كنّا نرى سراطين صغيرةً تشبه تلك التي رأينا منها أعدادًا كبيرة على شاطئ البحر.

وبعدَ مسيرة ساعتين بصعوبةٍ على هذه الضّفاف المرتفعة، توقّفنا عند منتصف ارتفاعِ الجبل، فوق مكانٍ سهليٍّ صغير، يسمح لنا بإنزال حمولة الحيوانات، والاستراحة طوال النهار.

اصطادَ هاملن بضعةَ حجلان، أمّا أنا فكنت أقومُ بحراسة الصّناديق والأمتعة، وبعد ذلك واصلنا المسيرَ بمحاذاة الغدير، ثمّ تركنا الزاب الكبير في وادي ينساب فيه مجرى مياه اسمُه (تال)، ولاحظت كثرةَ النباتات هناك، مثل: الجوز، والدردار، وبعضَ الأشجار قليلة الارتفاع تنمو كجمّيزات على امتداد الغدير.

وفي الطّريق، صادفنا قرى كرديّة، وكان سكّانها لا يهتمّون بنا، بل ينظرون إلينا نظرةً لا ترضي، وعندما نريد شراءَ الحليب والدّجاج منهم يرفضون تقديمها لنا. وقد قام هؤلاء الكُرد بإجراء أعمالٍ بدائيّة حول قراهم، لكنّها أعمالٌ نافعة في زراعة الأراضي، وإقامة الحقول وسطَ هذه الأرض القاسية، حيث توجد جدران حجرية تسدّ الأراضي الزّراعية في المناطق المنخفضة من الحقول، وهكذا أمكنهم الحصول

على سهولٍ صالحةٍ لزراعة الأرز، والذّرة، والشّعير، وبذر القنب، ويضعون من هذا النوع نوعًا من الخبز المسطّح الرّقيق الذي يؤكل ناشفًا تقريبًا.

اجتزْنا قرية اسمُها (بيسرات) ذات موقعٍ ممتاز، تقع على الضّفة اليمنى من الغدير.

وسكّانُ هذه القرية لا يشبهون سكّانَ القرية السابقة، فأثناء مرورنا بهم كان الرّجالُ يقفون لتحيّتنا ويتمنّوا لنا سفرًا جيدًا، وتضمّ هذه القرية ثلاثين بيتًا متناثرًا في سطح الجبل، وأسطحُ هذه البيوت منخفضة، وتستخدم كممرّ أو باحة تؤدي إلى البيت الأعلى.

وهناك الكثيرُ من الصّخور والقمم العالية تسيطر على القرية بالكامل، بحيث إنّ انهيار واحدٍ يكفي لهدم القرية بالكامل. أمّا المجرى المائي فهو جافّ، وينفذ داخل الأرض، ثمّ يظهر بعد مائة مترٍ على سطح الأرض في الجهة العليا من القرية، ويبدو أنّ أكثر من خمسين عينٍ مياه تنبعُ من الأرض، وتجمع هذه المياه لتوزّع على الحقول، وفي أعلى الصّخور نلاحظ مبنًى صغيرًا أبيضَ في الصّخر، يبدو أنّه عبارة عن كنيسة القرية.

وكلّما صعدنا أكثر كلّما بدأت النباتاتُ تختفي تدريجيًّا، حتّى اختفت تمامًا، ولم نعدْ نرى سوى الصّخور والأحجار، ويبدو أنّ سطح الجبال ليس سوى أرض صخرية جرْداء، وعند منعرجِ الطّريق من بعيدٍ لمحنا قرية مُحاطة بأشجار الجوز والحور الجميلة، وهذه القريةَ تسمّى (رابات)، وهي قرية كرديّة ذاتُ منظرٍ جيّد مثل القرية السّابقة، وقد قرّرنا البقاءَ بها هذه الليلة.

استقبلنا أهالي القرية استقبالًا جيدًا، والفضلُ في ذلك يرجع لأصحاب البغال الذين رغمَ أنّهم من الكرد إلّا أنّهم طيّبون وحَسَنو التعامل، على عكس الآخرين

فقد كانوا قساة ومتوحّشين. يبدو أنّهم على علاقة بأحدِ سكّان القرية الذي جاء إلينا ليعرضَ علينا استضافتنا، وبالفعل أخَذَنا إلى منزله، وهو مسكنٌ لا أبواب له.

رتّبنا أمتعتنا كالمعتاد، وكانت الليلةُ رائعة، والسّكان طيبون جدًّا، فكان أحدهم يمسكُ لنا شمعة لتضيء لنا رغم أنّها تحرق أصابعه، وجاء جميعُ أصدقاء الرجل الذي استضافنا لرؤيتنا، وجلسوا حولنا على هيئةِ دائرة، ودخّنوا الغليون، وكنّا سننزعج من هذا التّحديق لو لم نكنْ قد اعتدنا عليه.

وبمجرّد إعطائهم بعضَ الهدايا البسيطة تكفي لجعلهم يهتمّون بنا، فقد أعطيت أحدَهم بوصلة حتّى يعرف اتّجاه القِبْلة في مكّة عند الصّلاة، كما أهديت النساء بعضَ المقصّات والإبر، وبعض السّكاكر للأطفال، وعندما سألناهم إذا كانت النساء يشتغلنَ ثيابًا أو قطعًا مطرّزة في الشتاء، فجاءوا إلينا بقطعةٍ لنشتريها. أراد يوفان إعدادَ العشاء، فطلبت منه إعدادَ بيض مقلي (أومليت)، وأنْ يضع عليه عرقًا من شراب الرّوم على سبيل التّغيير، وعندماً أكلنا كان الأهالي يستغربون، ويقولون لسيمون: كيف نأكل النّار؟

٢ تشرين الأول (أكتوبر):

بعدَ انتهائي من المراجعات الاعتيادية، التي لا أستطع إهمالها يومًا واحدًا، حاولتُ أخذ صورٍ لكلّ الأشخاص الذين كانوا ملتفّين حولنا عند مغادرتنا، ولكنني لم أنجحْ في هذه المحاولة مع الأسف، ولم يكنْ باستطاعتي إعادة الكَرّة.

غادرنا القريةَ في الساعة السّابعة، وبعد أن اجتزنا طريقًا سيئًا ومليئًا بالحجارة، بدأنا بالانحدار من أعلى تلّ عبْر طريق متعِب. وفي أعلى المنحدر رأينا شجرة زعرور وحيدة، لكنّها كبيرة الحجم اتّخذنا منها ملجأ للاستراحة عدّة دقائق. ثمّ تحركنا مرّة أخرى تاركين إلى اليمين وادٍ يقعُ بمحاذاة الذروة، ثمّ انحدرنا مباشرة

خلال منحدر أقسى من الصّعود لدرجة أنّنا اضطررنا إلى الإمساك بأسرجة الخيول لمساعدتها وسنْدِها.

وأخيرًا وصلنا إلى وادٍ، واسترحنا به قليلًا في ظلّ صخرة تقع قربَ قرية غير آهلة، ولا يوجد بها سوى بيوتٍ من الحجارة، ودونَ سقف، ومن الأمام شاهدنا منظرًا مختلفًا؛ فقد كان الوادي مقفرًا، وتكسوه الصّخرة التي يبدو كأنّها بقايا آثار بركانية، ومن المُحتمل أن تكون تحرّكات هذه الجبال نتيجة للحممِ البركانية.

تقوم السّاقية بدوران تجاوزناه بتسلّق تلّ صغير، حتّى وصلنا وادٍ آخرَ لا زرع به، وتملؤه الصّخور والحجارة، وهذا الماء الصافي العذب لا يستغلّه أحدٌ في ريّ أيّ نباتات، فيبدو الوادي يابسًا جدًّا مثل (وادي جهنم)، ورأينا به صخورًا كبيرةً على هيئة شلّالات، بحيث ترى مِن مسافة بعيدة شبه جسورٍ حجرية صغيرة، لا يمكن معرفة كيف أقيمت.. أو مَن.. ومتى أقامها؟

ومِن هنا يصبح الطّريق وعرًا بالتّدريج، ولكنّ البغال تتحكّم في سيرها؛ بل وتقفز على الصّخور وكأنّها ماعز جبلي. ولذلك فقد طلبتُ من أحد الأشخاص حَمْلَ جهاز التّصوير لكي لا ينزلق عن ظهرِ الحيوانات ويتحطّم على الصخور.

بعد قليل، وصلنا نهرًا يسمّى (أنتراد)، يكبُر هذا النهر بفضل فروع المياه الكثيرة التي تصبّ به، ثمّ يتحوّل الوادي من وادٍ أجرد إلى أرض خضراء خصبة، فتظهر أوّلًا بعضُ الحشائش، ثمّ نرى أشجارَ الحور والجوز، ثمّ يصبح الوادي المتعرّج أكثر اتّساعًا، ونشعر وكأنّنا في الفردوس حيث تظهر الأشجارُ المثمرة والمروج والنباتات والحقولُ المزدهرة، والأرض مكسوّة بالجوز الذي يسقط من الأشجار، وأشجار الكروم تتسلّق المروج العالية، وهي محمّلة بأعناب ممتازة، إنّه حقًّا اختلافٌ كبيرٌ بين هذه المنطقة والمنطقة القاحلة السابقة.

وبعدَ قليل، وصلنا قريةً كرديّة تسمّى (أونديك)، وسكّان هذه القرية يعيشون في تفاهم وهدوء رغمَ اختلاف عاداتهم. والماءُ بها مجمّع ومحفوظ بعناية، ويتمّ توزيعه على البساتين بنظام، وينتهي هذا الغديرُ عند نهاية القرية حيث تكون كلّ مياهه وزّعت على الأراضي.

ذهبَ أصحابُ البغال يبحثون لنا عن عنب، بينما قمْنا نحن بجمع الجوز، وأكلنا كليْهما ونحن نتقدّم في السّير، وخلال ذلك لاحظتُ رحًى بدائيّةَ الصّنع تعمل بالماء، ويستخدمها الناسُ في صناعة زيت جوز سميك. وفي نهاية هذه القرية رأينا مقابرَ مُقامة على طرازٍ خاصّ، تشبه أتانين حجريّة مبنيّة الأبواب، وقد علمت أنّ هذا الطراز خاصّ بالسريان.

وبعدَ مسيرة ساعة، يصبح الوادي أقلّ جَمالًا، ولكنّه لا يصبح أجرد كالسابق، وبعد مسيرةٍ مائة متر فقط، نجد أنفسَنا أمام سحرٍ آخر، حيث تظهر جنّةٌ أخرى، وهي قرية (توروب) الصّغيرة؛ حيث سنطلب المبيتَ ليلًا.

وبمجرّد دخولنا القرية، مررْنا على مجموعةِ رجال جالسين على شكل دائري، وهُم يدخّنون، ومضفّرين شَعْرهم، وهذا ما يميّز السريان، حيث إنّ الكرد يحلقونَ رؤوسهم جميعًا، ولذا قد تظنّ أنّ الرجال نساء.

ولا يبدو من مظهرهم أنّهم متحمّسون لاستقبالنا، أمّا (الملك) الذي نقصده، فمن المؤكّد أنّه سيفرح بالهدية التي سنقدّمها له مقابلَ خدماته، أكثر من فرحِه بالثواب الذي سيناله من السّماء بسبب محبّته، قدّم لنا هذا الرجل منزلًا أكثرَ أمنًا من المنزل الذي قضينا به الليلة الماضية.

جاءَ الأهالي كالمعتاد، وجلسوا حولنا على هيئةِ حلقة، بينما ننشغل نحن في تجْهيز أمورنا، فزيارتُنا لهم بمثابة عيدٍ صغير. قاموا بإشعال النار في الغرفة، حيث كان الجوّ

باردًا هذه الليلة، وازدادتْ رائحة الغرفة في السّوء جرّاء تجمّع الأهالي، خاصّة وأنّ الغرفة مغلقةٌ تمامًا، ولا يوجد بها أيّ أبواب أو شبابيك، إنّها العفونة، وقد ازدادت أكثرَ من رائحة الطعام، وازداد تجمّعُ الأهالي القادمين لرؤيتنا من كلّ مكان، وبقينا في هذا الازدحام حتّى السّاعة العاشرة.

٢ تشرين الأول (أكتوبر):

عند مغادرتنا القرية تجمّع الأهالي كلّهم، وقد امتطيت بغلًا مزعجًا جدًّا، لدرجة أنّني خفت أنْ أضطرّ للقيام بأمرٍ مثيرٍ للسّخرية أمام هذا الجمع الكبير. وأعتقد أنّ هذا البغل منزعجٌ من ثقلِ وزني؛ لأنّني لم أكدْ أضع رجلي اليُسرى في السّرج، وأرفع رجْلي اليُمنى في الهواء فوق الحملَ الثّقيل؛ حتّى بدا يقع مؤخّرته.

أمّا مضيفنا الذي فرح كثيرًا بهديّتنا، فقد قرّر مرافقتنا حوالي مائة متر وهو مُمسكٌ بزمام بغلي، بينما أمسك ابنُه بزمام بغل هاملن. ودّعتنا العائلة كلها، واتخذنا طريقًا سيئًا وسط بستانٍ جميل، كالذي رأيناه بالأمس. وهناك أسيجة- أسوار- تحيط بالحقول، ولكنّها تسبّب إزعاجًا كبيرًا لنا، حيث إنّ البغال تندفع نحوها بسرعة وهي محمّلة، فيتعرّض الجدار والأمتعة إلى صدماتٍ قويّة.

وبعد مسيرة ساعة، يختفي النّبات تمامًا، ويجفّ الغدير، ويختفي الطريق، فنبحثُ عن قلب الوادي وسطَ صخور في أخدود ذي حواجز عمودية وارتفاع شاهق، بحيث تبدو الأرض سيئة جدًّا. وفي ناحية اليمين نرى ساقيةً من سواقي العزلة، فيها بعضُ الماء. ونرى أيضًا قريتيْن صغيرتيْن، إحداهما كرديّة، والأخرى سريانية، ترتفعان بمحاذاة بعضِهما البعض، وحتّى يتمكّنوا من الزّراعة لكفاية حاجاتهم توجد أرضٌ ترويها السّاقية السّابقُ ذكرها.

القريّة الكرديّة تسمّى (جيسي)، أمّا السريانية فتسمى (بيرج)، ومن المحتمل أنْ تختفي هاتان القريتان يومًا ما، حيث إنّ سببًا بسيطًا يكفي لقطع المياه عن هذه السّاقية التي تروي زروعَهم، وهكذا تضطرّ القريتان إلى الهجرة، وبالفعل فإننا قد صادفنا الكثيرَ من القرى المهجورة في طريقنا.

وخلالَ ساعتين صعدنا السّفح الأيسر حلزونيًّا، حتّى وصلنا إلى منتصف الجبل، حيث تنبتُ بعضُ أشجار البلّوط كجميزات، وبعد ذلك تصبح الأرض خاوية تمامًا كالأرض التي شاهدناها قبلَ وصولنا إلى (وان)، فهي نفسُ الجبال، بدون انتظام، ولكنّها في هذه المنطقة أكبرُ وأكثرُ وعورة. شعرنا أنّنا تائهان، وأنّنا لا محال سنضيع في هذه المخاطر لو لمْ يدلّنا أهالي القرى على الطّريق من قريةٍ إلى أخرى.

يختلفُ منظرُ الأرض من قمّة الجبل، فهي أكثرُ خصوبة، وتبدو الحشائش والجمّيزات فاتحةً أكثر. وكان نزولُ الجبل صعبًا مثلَ الصعود، لدرجة أنّنا ترجّلنا عن البغال، وعندما وصلنا للأسفل رأيْنا غديرًا آخر يسمّى (بيلات سو)، كان الوقت حينها عند الظّهيرة؛ لذا توقّفنا للاستراحة بضعَ دقائق تحت ظلّ شجرة، وتناولنا القليل من العنب؛ حيث إنّه الطّعام الوحيد الذي بقي لدينا.

تقع الضّفةُ اليمنى من غدير (بيلات- سو) على بعْد خمسمائة متر من أسفل المجْرى في اتّجاه سيرنا، حيث مرجٌ ثريّ وشديدُ الارتفاع عموديًّا، وقد صادفنا بقايا جسرٍ قديم لم يبقَ منه سوى خمسة أو ستّة أقواس. ودفعني منظرُ هذا الجسر إلى التّساؤل: كيف أنّ هذا العمل الجميل يصبح مهمَلًا هكذا؟!، ومَن المسئول عن هذا الإهمال؟! ومتى تمّ بناؤه؟ وأجابني الأهالي بمئات الأجوبة، ولكن عدم وجود كتابات يجعلُ من المستحيل استعادةَ تاريخ هذا البلد.

بعد استراحة قصيرة، بدأنا نصعدُ السّفح المعاكس لهذا الوادي الجديد، وبعد ساعةٍ من الصّعود وصلنا إلى أوّل بساتين قرية (دهال)، وهذه القرية مركزٌ مهمّ، حيث إنّها تضمّ مخفرًا صغيرًا للشّرطة وقائمقام. اجتزنا هذه القرية بمحاذاة السفح الشّرقي على علوّ يطلّ على القمّة الواقعة إلى يميننا. بيوتُ هذه القرية غيرُ جيّدة، ويبلغ عددُها خمسين بيتًا، ويبدو أنّ الأفنية الصّغيرة التي يقطن بها الحيوانات مليئة بالتّبن.

بعدَ عبورنا هذه القرية توقّفنا بالقرب من عينِ ماء تتقافزُ فيها الضفادع، ذهب يوفان للقرية ليبحثَ لنا عن طعام، بينما كنّا نهتمّ بالحيوانات، وعندما رآنا القائمقام، أرسل شخصًا يدعونا للذّهاب إليه، فطلبت من سيمون أنْ يذهب إليه ويخبره أنّنا لا نحبّ الإزعاج، وأنّنا متعجّلون، وإنْ كان يرغب في رؤيتنا يُمكنه المجيء بنفسه، وأنّنا نريد شرطيّين آخرين لمرافقتنا.

وبما أنّ سيمون لا يفهم حديثَنا عادة، فقد أخبرَ القائمقام أنّنا سنكتفي بشرطي واحدٍ من الآن فصاعدًا. اجتمع أهالي القرية بالتّدريج حولنا، وشعرت أنّهم ليسوا جيّدين؛ حيث كانوا يطوفون حولَ الحقائب ويفحصون الأمتعة في فضول، حتّى أنني قمتُ بجمعها وأمرتُ بحراستها، ثمّ أعطيتُ إشارتي بالتحرّك.

طلبَ منّا الأهالي المبيتَ في القرية؛ حيث قالوا إنّ العمادية بعيدة جدًّا، وبما أنّني شككتُ في أمرهم، فقد طلبتُ من سيمون أنْ يسترق السّمع إليهم في خفية، ويُطلعني على ما يدور بينهم، وبالفعل كان شكّي في محلّه؛ فقد سمعهم يتحدّثون عن نيّتهم في سرقتنا، وعلمَ أيضًا أنّ لديهم أساليبَ معيّنةً في إخفاء المسروقات دونَ أن نشعر.

عندما علمتُ بهذا الأمر أصبْتُ بالقلق الشّديد؛ حيث إنّنا لم نكن جاهزين للتحرّك بسبب الأهالي الذين أرادوا عرقلةَ المسير، وأخيرًا غادرنا القريةَ في الساعة الثّالثة. وبعد أن تركْنا البساتين أصبح الوادي أجرّدَ وصخريًّا، ثمّ ظهرت بعض الشّجيرات التي تنتج ثمرًا بكمّيات كبيرة، يجمعها السّكان في سلالٍ كبيرة ويأكلونها.

بدأ الأخدودُ يضيق، فانحدرْنا في طريقٍ وسط أدغال وعوسج وسنديان ذي حجم صغير، وأخيرًا عندما وصلْنا للأسفلِ وجدنا مياهًا خضراء صافية، هي مياه نهر الزاب الكبير، الذي أصبح كبيرًا للغاية في هذه المنطقة.

كانت ضفافُ النّهر خضراء، ومياهُه العذبة تنعشُ الخضرة بشكل جذّاب، وفي السّاعة الخامسة وصلنا إلى الضّفة، وبما أنّه لم يبقَ سوى ساعة حتّى يحلّ المساء، ونحنُ لا نعرف أين سنقضي اللّيلة، فقد واصلنا المسير على ضفاف النّهر الساحرة، التي تشبه حدائق الإسفندان والزّان والصّنوبر والكروم المتسلّقة فوق الأشجار.

وواصلنا المسيرَ بمحاذاة النّهر مسافة كيلو متر تقريبًا، حتّى وصلنا إلى جسر، وبالقرب منه وجدْنا كوخًا صغيرًا مقامًا من أغصان متروكة، وكان الظّلام قد اشتدّ ولم نعدْ نستطيعُ المسيرَ عبر الصخور، فقد قرّرنا المبيت به، حتّى لا نتوه أو تُصاب البغال بأذى.

ولكنّ أدلّاء القافلة اعترضوا على هذا، وقالوا إنّه من الغباء أن نتوقّف هنا، لأنّنا سنكون فريسةً سهلةً للّصوص، وأنّه من الأفضل أنْ نعبر الجسر وننتقل إلى الضّفة الأخرى من النهر، ولكنّنا وجدنا بالأمر مخاطرةً كبيرة، حيث إنّ الجسر عبارة عن حصران متحرّكة تنقصُها أغصانٌ كثيرة، ويوجد به شقوق كثيرة تغوص بها أقدامُنا، لذا ترفضُ البغال عبورَه بشدّة، كما أنّ النهر عميقٌ جدًّا، ولا نستطيع خوضه.

واستمرّ الجدالُ بيننا وبين الأدلّاء الذين يتحدثون اللغة الكردية والكلدانية (السورث)، أمّا يوفان فيتحدّث التركية والكلدانية، وسيمون لا يتحدّث سوى التركية، فيقوم سيمون بترجمة كلامِنا ليوفان، الذي يترجمه لأصحاب البغال.

وأخيرًا تمّ الاتّفاق على حمل الأمتعة بالأيدي، وأنْ تعبر البغال في الماء، وهكذا قمْنا بإنزال الأمتعة، ورفع الأسرجة، وحملنا الأمتعةَ بصعوبة بالغة، ثمّ كان علينا جعلُ الحيوانات تعبُر، واقترح الرجال أنْ يكونوا في طرفٍ من النهر، وأن نكون نحن في الطّرف الآخر، ورغم ثقتي بهؤلاء الرجال إلّا أنّني كنت أفضّل أن تبقى الأمور كلّها تحت سيطرتي. وبما أنّهم كانوا يخافون من خوضِ النّهر في الليل، فقد اضطررتُ أن أنزع ثيابي وأشدَّ حبلًا على الحزام، وأبحثَ عن قاع النّهر الأقلّ عمقًا وأسيرَ فوقه.

وبعدَ إيجاد العمقِ المناسب، ربطنا البغالَ مِن ذيولها ببعضها البعض، وقام رجلان بسحْب الحبلِ المعلّق برأس الحيوان الأوّل إلى الضّفة الثانية التي يقف عليها، أمّا أنا فقد صعدتُ على ظهر الحيوان، حتّى أثيرَه وأجعلَه يسرع، بينما كان الأولاد يضربون باقي القطيع بعصيّهم ليدخلوا الماء.

كان الأمرُ شاقًّا جدًّا خاصّة في هذا الوقت- الليل- إلى جانبِ أنّ الليلة لم تكن مقْمِرة، أي أنّ الظّلام كان حالكًا، ولم نكنْ نرى جيدًا، وأخيرًا انتهينا من هذه المهمّة في تمام السّاعة التاسعة والنصف، وكنّا على وشك أن ننزلَ أمتعتَنا عندما لمحت من بعيدٍ نارًا.

أرسلتُ أحدَ أولاد القافلة ليتعرّف على الأشخاص المخيّمين قرب هذه النيران، لم يعدِ الدّليل سوى بعدَ ساعة، وفي هذا الحين كنت أسخّن ماءً للاغتسال،

وأتمشى حول البغال والأمتعة، وعندما عادَ الدّليل أخبرني بما يسرّني، فحملنا البغال وسرنا في الظّلام، وبعد ساعة إلّا الربع وصلنا إلى هؤلاء المخيّمين الطيّبين الذين استضافونا قربَ نارهم.

وقدْ علمت أنّهم مزارعون ورعاةٌ صغار، يخيّمون حول قطعانهم وحقولهم، ويشعلون هذه النّار المتوهّجة لحماية أنفسهم من الخنازير البريّة، وأيضًا من الدببة التي تنتشرُ بكثرةٍ في هذه المنطقة. سوّينا أفرشة المخيم فوق رحى، وقام يوفان بإعداد الشّاي، أمّا أنا فقد غصتُ في فراشي محاولًا النّوم، وتركت هاملن الذي يتمتّع بشهية كبيرةٍ يبحث في أواني المطبخ باحثًا عن بقايا الطعام.

٤ تشرين الأول (أكتوبر):

لحُسن الحظّ، كنّا قد اتّخذنا احتياطنا بالأمس، فكسوْنا أغطيتَنا بمعاطف مطاطيّة، وفتحنا شمسيّاتنا فوقَ رؤوسنا، وقد كان النّدى غزيرًا جدًّا، ولو لم نفعل ذلك لكانت جميعُ الأمتعة تشرّبت الرّطوبة، وكأنّ الدنيا قد أمطرت.

أمّا القرويّون فقد رقدوا بجوار النّار دون اتّخاذ أيّ احتياطات، ولم يكترثوا بالأخطار الشّديدة التي يعرّضوا أنفسَهم لها في هذه الليالي الباردة، وكانوا هم وأطفالُهم عراةَ الرّأس، وبعضهم عراة الرّأس والصدر، ولكنّهم غطّوا في نوم عميق فوق الأرض.

وأعتقدُ أنّ بهذه التصرّفات لا عجب أنّ بعضهم يمرض ويتوفّى، فليس بوسع أيّ شخص الصمودُ في هذه الأجواء سوى أصحاب الصّحة الحديدية. طلبت من سيمون أنْ يحملوا الأمتعة حتّى أعودَ أنا وهاملن من الجسر، وعندما عدْنا في السّاعة السّابعة كنّا جاهزين للرحيل.

عبَرْنا رافدًا مهمًّا من روافد نهر الزاب الكبير، ولكنّني لم أتمكّن من معرفة اسمِه، وقد عبرْناه خوضًا، ثمّ اجتزنا منحدرَ السّفح الأيمن عبر غابةٍ صغيرة من البلّوط، وكان حجمُ البلّوط كبيرًا بشكلٍ مُلفت، وبكميّات كبيرة، حتّى أنّها تغذي أعدادًا كثيرة من الخنازير، وقد وجدنا آثارًا كثيرة لهذه الحيوانات. وكان البلّوط متنوّعًا بشكل لا يُحصى، فكانت الأوراقُ والبلّوطات لها ألفُ شكلٍ مختلف.

ورأينا فوقَ أشجار البلوط الذي مازال يسقطُ حتّى اليوم، كما في عهد العبرانيّين، ويبدو فوق الأوراق والبلوط كندًى (صمغ) القطران، ولكنّني لا أعلمُ إنْ كان ندى أم عرق النّبات؛ لأنّنا نجده- أيضًا- فوق الصخور في الصّحراء، وفي غابات البلوط، باستثناء أشجار أخرى.

قطعْنا هذه الغابة في ساعتين، وكان ارتفاعُ أعلى شجرة فيها يبلغ ستّة أو سبعة أمتار، ثمّ تختفي الأشجار، ونجدُ أنفسنا وسطَ الصّخور، وصادفنا الكثيرَ من الدراج. وفي أعلى الجبل يمتدّ وادٍ مقفر، تنمو فيه حشائشُ فقيرة ويابسة فقط، ولا يوجد سوى شجرةٍ واحدة لا أوراقَ لها منتصبة في السّهل، ولا نرى تحتها أيّ أوراق، إنّما نرى أقمشة شعر وصوف قطعان.

ثمّ صعدنا لآخر مرّة، وشاهدنا مرّةً واحدة في الطّرف الآخر صحنَ العمادية الصّغيرة، ونرى مِن بعيد خلال أخدودٍ عميق علينا اجتيازُه يقع وسط جبلين فيهما قمم، الطّريق المشقوق في الصّخر من أكثر الطّرق وعورة، ولأنّ سيمون أصرّ على البقاء على ظهر بغلِه، فقد تدحرج وسقطا هما الاثنان.

أمّا البغلُ الذي كان يحمل آلةَ التّصوير فقد انزلق عدّة مرّات، وكاد يسقط في الهاوية، ولكنّه تشبّث بالطّريق بذكاءٍ عجيب، بواسطة قدميْه الأماميّتيْن،

وعندما شاهده السواس على وشكِ السّقوط، وهُرِعوا إليه وأمْسكوه من ذيْله، وسحبوه إلى سطحِ الطّريق المعتدل.

وأخيرًا وصلْنا إلى البيوت الأولى من بساتين العمادية، أمّا المدينة نفسها فكانت تقعُ على صحنٍ مسطّح، وكان علينا أنْ نهبط إلى أسفل الوادي عبرَ البساتين كلّها، ثمّ علينا الصّعود مرّةً أخرى حتّى نصلَ إليها. كانت أشجارُ التّين والرمان والكروم ناضجةً جدًّا، وبدت أوّلُ رمانة قطفناها ونحن عابرون لذيذةَ المذاق.

وقد لاحظنا تغيّرًا في درجة الحرارة والمناخ خلال أيام، فنحن الآن داخلَ البلد الحارّ، رغم أنّنا لسنا جنوب جولميرك إلّا بدرجة واحدة، وبدرجةٍ ونصف عن وان.

الفصلُ الثّاني

من العماديّة إلى الموصل

محتوياتُ هذا الفصل:

العمادية، الدّخول إلى المدينة، القائمقام السيد زيا، السكّان وانشغالاتهم، تجوال في المدينة، حديث مع القائمقام، الرّحيل عن العماديّة، أرادن: عشاء مع الخوري، ترجمة سيمون، نترك وادي كارا، رهشفري، دهوك، سهل الموصل، قرى زراعية، ضفاف دجلة، شرورُ الأهالي، السّقوط والحوادثُ في الطريق، الوصولُ إلى الموصل، يرفضون استضافتنا، إلى القنصلية الفرنسية.

تقعُ بلدة العماديّة على مرتفع مسطّح يبلغ ارتفاعُه حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة مترٍ فوق معدّل سطح الوادي، بساتينُها خلّابة، وسكانُها يتركون المدينة ليسكنوا في البساتين، ولا يبقى فيها سوى التّجار واليهود. وقد كانتْ هذه المدينة في السّابق قلعةً ذات أهميّة كبيرة، وهذا ما يبدو من خلال الأطلال.

المرتفعُ كلّه محصّن، ولها ثلاثةُ أبواب للدّخول، وقد دخلنا نحن من الباب الشّرقي، متّخذين طريقًا محفورًا في الصّخر، وكان يمكن لهذا الطّريق أن يكون بمثابة المدْخل الصّعب للمُهاجمين، ويوجد رواقٌ ذو قوس وبابٌ كبير حديديّ مغلق، ومجموعة حرّاس مساكين يقفون في المدخل، إلى جانب الضّابط الذي لم يكن يعرف مع مَن يتعامل، حيث كان خائفًا من قدوم سلطات مهمّة، وقد قام هذا الضابط باستعراضٍ للسّلاح أمامنا، وطلبنا منه أن يقودنا إلى الوالي (القائمقام).

إنّ هذه المدينة ليستْ سوى مجموعةٍ من الخرائب، وسكّانها بسطاء، أمّا قصر الوالي (القائمقام) ليس سوى مبنى كبير، ولكنّه في حالة سيئة جدًّا. تركنا سيمون ليحرسَ القافلة (الكروان)، وذهبنا نقدّم أنفسنا أنا وهاملن إلى الوالي- القائمقام-، وقد فرحْنا كثيرًا عندما علمْنا أنّه يتحدّث الفرنسية، وازدادت سعادتُنا عندما قابلنا السيد زيا، الذي كنّا قد قابلناه في وقتٍ سابق فيما بين باشكاه، ووواه.

كان القائمقام منزعجًا من وعورةِ الطّرق ومخاطرها، فلم يكنْ قد مضى على وجودِه هنا سوى يوميْن، ويبدو أنّه أرسل إلى هنا في مهمّة أو كارثة ما، كما اشتكى أيضًا من أخلاق السّكان، حيث قال إنّهم ينظرون إليه نظرةَ احتقار لأنّه يتحدّث الفرنسيّة، ويرتدي ثيابًا أوروبّية، استقبلنا الوالي استقبالَ شخصٍ مثقّف ومهذب، ووضع نفسَه تحت تصرّفنا، ونصحنا بالذّهاب للإقامة في بيتٍ يعود للدومينيكيّين، وهو منزلٌ مهجور، وهكذا نكون وحدنا، ونستمتعُ بحرية أكبر.

ودّعنا القائمقام، وطلبنا منهم توصيلَنا إلى البيت السّابق ذكره، وهو يقع في الجهة الغربية على ضفّة الصّحن الذي يطلّ على الهاوية (الروبال). كان البيت مقامًا في أرض فسيحة يُحيطها سور، أنزلنا أحمالَ البغال، ورتّبنا الخيم (الجوادر) وأقمْنا في غرفةٍ صغيرة واقعة في الطّابق الأرضي، وخرجنا بسرعة للتجوّل في المدينة.

كانت المدينةُ في حالةٍ يُرثى لها، وكأنّها أصيبت بآلاف الطّلقات حتّى وصلت إلى هذه الحالة. وبين الحينِ والآخر كنّا نرى كوخًا حقيرًا يكاد يكون كافيًا ليأوي عائلة فقيرة، أمّا السّكان فعادةً يعملون في الحياكة والغزل. اجتزنا السّوق، وأزعجنا جندي شبه مجنون حتّى أخّرنا ربع ساعة، فكان يُخبر سيمون الذي ترجم لنا بأنّ هذا الجندي مصابٌ بالحمّى، ويحتاج إلى كينين.

ولا يوجد في المدينة العُليا سوى اليهود، وهُم يشكّلون قسمًا كبيرًا من السكان، ويعيشون بتآلفٍ مع المسلمين، وأحيانًا تتزوّج اليهوديّات من المسلمين، ولكن المسلمات لا يتزوّجن من اليهود.

والأهالي هنا قصارُ القامة، وملامحُ وجوههم معتدلة، أمّا النساء فيبدو أنّ تزاوج الجنس اليهوديّ من الجنس الكردي لم يعطِ نتائج جيّدة، فهنّ قصيرات وسيئات الشّكل، فوجههنّ ليس سيئًا، ولكنّ جسدهنّ الذي يتعرّض للزواج المبكّر لم يُتِحْ لهنّ بلوغَ النّضج، ممّا أثّر على العنصر بالكامل، فأنا لم أرَ بين النساء الهنديات أو اليهوديّات في الجزائر أو في مراكش مَن يتمتّعن بشكل جميل.

سوقُ البلدة صغير جدًّا، ويحميه أغصانٌ توفّر لها نور الشّمس، وقد لمحنا بين المارّة أشخاصًا سودَ البشرة، ورأينا النّساء ينظّفن الحنطة أمام أبوابهن، ومن خلال الفتحةِ المستخدمة في المنازل الضّيقة، نرى بعضهنّ ينسجنَ الأقمشة بطرق بدائية.

ثمّ عدنا إلى الجهة الشّمالية الغربية من هذا المرتفع المسطح، من جهة بيت الوالي، ودخلنا خانًا قديمًا متهدّمًا، كما هو الحال في باقي الأماكن، وهذا الخان قائم على حافّة الصّحن مثل مسكنِنا، فيطلّ على منظرٍ جميل جدًّا؛ حيث البساتين والأخدود الذي جئنا منه.

تتباينُ نضارة البساتين مع المنْحدرات القاحلة المكسوّة ببعض عوسجات، حتّى أنّها تبدو من بعيدٍ على هيئة ضلع نهر كبير يتهادى. قضينا في تجهيز آلة التّصوير، بينما رقدَ سيمون، وبدا أنّه يتعرّض لحلمٍ مزعج، أمّا يوفان فقد نسي أن يضعَ ماءً في الإناء حتّى أصبح اللّحم والملفوف جافّيْن، فاضطررنا للنّوم بدون أكل، ولكنّنا نمنا بشكل أفضل.

٥ تشرين الأول (أكتوبر):

قمْنا بزيارة القائمقام، وطلبنا منه أنْ يساعدنا في الحصول على قافلة (كروان)، وفي الحال وضع رئيسُ الجندرمة (الشرطة) نفسَه تحت أمرنا، وراح يشكو لنا بشدّة من عدم شعور رؤسائه بالمسئولية، وقال إنّه عندما سمع عن ضرائب المناجم، قام بزيارتها، ثمّ تحدّث عنها مع رئيسه، وأخبره بمدى النّفع الذي سيعمّ على البلاد عند استغلال هذه المناجم، فكان جوابُه كالتالي:

(إنّ الأمر لا يعْنيك، ويجب ألّا تتدخّل مِن الآن فصاعدًا في شئوني).

كما اتّضح أيضًا أنّ السيد زيا لا يثقُ كثيرًا في الرجل المكلّف بالبريد بين العمادية والموصل، حيث إنّه قد طلب منّا توصيل رسالة أو رسالتين منه إلى مكتب الموصل.

وعند خروجنا من بيت الوالي، وجدْنا رئيسَ الشّرطة الذي عرّفنا على شخص تركي- عربي، نصف مسلم ونصف يهودي، طلب منّا ثلاث مجيديات ونصف عن الحصان الواحد للذّهاب إلى الموصل، وهذا السّعر باهظٌ جدًّا، حيث إنّ السعر

الاعتياديّ خمسة وثلاثون قرشًا فقط، كما أنّه لا يريد أن يسلك الطريق الذي أردنا سلوكه.

فعرضْنا أن نوافق على السّعر المطلوب على أنْ يوافق هو على الطريق الذي نريدُه، وقدّم رئيس الشرطة نفسَه ضمانًا لتنفيذ العقد بيننا وبين الرّجل. وبالفعل اتفقنا وأعطيتُ إلى الشّيخ المسلم ليرة تركية كعربون، وأعطيتُ الموظّف بوصلة صغيرة من فضّة مذهّبة كنت أحملُها في سلسلةِ السّاعة لأشكره على مساعدتنا.

وكنّا قد جلبنا معنا حوالي عشرين بوصلة، وعندما كنّا نريد شكر أحد لا نستطيع شكرَه بالنقود، وربّما يكون سيقبلها؛ فقدْ كنّا نفضّل إهداءه بوصلة، فكنّا نفكّ السّلسلة، ونهديها له، وبعد دقائق نضع غيرَها في السلسلة لنستخدمها في نفس الغرض، أيْ لإكرام أيّ شخص.

مرّت ساعةٌ والبغالُ لم تصل بعد، وأقبل علينا دليلُ القافلة ليخبرنا بأنّ أحدَ حيواناته مريض، ولا يُمكننا السّفر اليوم، لكنني كنت واثقًا أنّ هذا الأمر ليس سوى كذبة، فقلت له إذا لم يأتِ خلال نصفِ ساعة مع الجياد والبغال، سنخبر رئيس الجندرمة ليتعاملَ معه، فوجدناه يستنجد بعمامته البيضاء خشية من الخمسين ضربة التي سيتعرّض لها من قِبَل رئيس الجندرمة، والتي ستعلّمه كيف يلتزم بكلامه، لذا وبعد ساعةٍ وجدناه مقبلًا علينا ومعه جميعُ حيواناته.

وعند الرّحيل، جاءني الرّجلُ من جديد برأي آخر، فيقول إنّه لن يتخذ الطريق المتّفق عليه، وهكذا بدأنا الجدالَ والنّقاش من جديد، وبعد أنْ نفد صبري ترجّلت من على الحصان، وأمسكتُ الرجلَ من كتفه، وسحبته نحو قصر الوالي، فتأكّد الرجل أنّني لم أكن أهدّده، واندفع رجاله نحوي وقبّلوا قدمي وثيابي حتّى أغفر لسيدهم.

اجتزنا الأحياءَ الفقيرة التي وصفتها، وخرجنا من الباب الغربي، وقد كان هذا البابُ غريبًا جدًّا، حيث إنّ العقد الخارجية هندسيّة ومزيّنة بزخرفة عربية (أرابيسك) وأفاعي متشابكة.

كان نصفُ الطّريق محفورًا في الصّخر، والهبوط خطرًا جدًّا، حتّى اضطررنا للترجّل على الأرض، فكان الطّريقُ عبارة عن سلّم نصفُه متهدّم، ومكوّن من صخور ومن حصًى مهذّب وصالح للاستعمال بفضل عامل الزّمن. وبعد مسيرة عشرين دقيقة، تمكنّا أخيرًا من امتطاء الحيوانات، حيث كان الطّريق سهلًا، ومررنا وسط عوسج ورمان وأدغال، ورغم انتهاءِ البساتين، إلّا أنّ منظر الطريق مازال منثورًا بشجيرات.

اتّبعنا المسارَ الشّمالي المتّجه جنوبًا لوادٍ كبير، حيث يصبّ نهير (سرني) الذي ينبعُ من جبل كارا، ويمتدّ هذا النهير حتّى يصبّ في الزاب الكبير. وبالسير وسط الضّفاف سيطرنا على العمق، حتّى ذُهلنا أمام منظرِ ظلال قمم الأخدود الآخر الذي يشكّل سلسلةً طويلة تمتدّ في خطٍّ مُستقيم حتّى يتشتّت النّظر فيها شرقًا وغربًا.

التقطتُ صورةً شاملة للعمادية من أعلى جبلٍ صغير، وحتّى تكون آلة التّصوير جاهزةً بسهولة، جعلت الشّرطي الوحيدُ المرافق لنا يحملُها على ظهره، وعندما اكتشفَ صلابة أطرافِ الحقيبة، نزعَ بنطلونه ووضعه كمسندٍ ما بين الحقيبة والكتفين دون الاهتمام بخصوصية الزّي.

لقد لاحظت أنّ أطراف العماديّة الآن أكثرُ هدوءًا من ذي قبل، حيث كانت قبل بضعِ سنوات مليئةً بقطّاع الطرق، وكانت جرائمُ القتل تحدُث بها يوميًّا. وعلى طول الطّريق كنّا نصادف رممَ حجارة تشير إلى مكان وقوع حادثةٍ ما، فقد عثر على رجل ميّت على الطّريق، فأقيمت في الموضع، ودفنَ في نفس المكان عبر وضع الحجارة عليها.

وصادفنا أيضًا أربعةَ لصوص مقيّدين بأغلالٍ خشبية، ويستريحون في الظّل، وبرفقتهم فرقةٌ مكوّنة من خمسة جنود.

وفي سفْح الجبل رأينا بعضَ المغارات والكهوف الطبيعية، والتي لا يوجد بها ما يلفتُ الانتباه، ويبدو أنّها تُستخدم كملاجئ للقراصنة والحيوانات، وأحيانًا يتخذها مسافرو القوافل مأوًى لهم في الليل. وأخيرًا وصلْنا قرية (أردان)، وهي قرية يقطنها الكلدان، ونزلنا في البيت الذي يسكنُه الخوري (الكاهن)، وقد استقبلنا الكاهن استقبالًا كريمًا، وقدّم لنا غرفته الخاصّة لنقيم بها.

وقد كان هذا الكاهنُ في مرسيليا، ويعرف بضعَ كلمات إيطالية، ولكن ليس بما يكفي ليفهمنا ونفهمَه، فكان يحاول بكلّ الطّرق أن نقبل غرفته، وهي عبارة عن غرفة صغيرةٍ مربّعة، أثاثُها كلّه مكوّنٌ من سرير خشبي، وألحّ علينا حتّى نشاركه العشاء.

فحملوا إلينا فوقَ منضدة صغيرة علوّها عشرون سنتيمترًا أربعة أطباق مملوءة أرز، ومرق من مختلف الأنواع من الدّجاج والخروف. جلسنا على أسرّتنا التي نتّخذها ككراسي، ووضعوا المنضدةَ أمامنا، وجلس الكاهنُ على كرسي كبير من خشبٍ خشن بجوارنا، وليس للأب سوى ملعقةٍ واحدة، أمّا نحن فأكلنا في أطباقنا، بينما أكل سيمون الجالسُ بقربنا بأصابعه، وقد كان في البداية يأكلُ معنا، ولكن عندما اكتشفنا قلّة ذوقه جعلناه يأكلُ وحده.

وفي النّهاية أكلنا الفواكه مثل الأعناب والأجاص والرمان والجوز والفستق، التي تنمو كلّها في قرية أرادن.

كان سيمون يترجم كلامَنا للخوري بشكل خاطئ ووقِح، فبعد العشاء قدّموا لنا الشّاي، ورأينا أنّ الكاهن لا يشرب؛ فسألناه عن السّبب، فطلب منهم أنْ يحضروا

له بعضَ الشّاي، ووجدناه يشربه مُكْرهًا، واتّضح لنا أنّ سيمون أخبره أنّا سننزعج إن لم يتناوله.

وبعدَ قليل أمر الخوري ثلاثة أو أربعة أطفال أن ينشدوا لنا نشيدًا أرمينيًّا، وهو بمثابة الصّلاة من أجل الضّيوف، وفي السّاعة التّاسعة انسحب الكاهن، وتركنا لنرتاح. أغلقنا الباب، ولم تكنِ الغرفة تحتوي على شبّاك تجعلنا نحمي أنفسنا من الفضوليّين، ولكنّنا نسمع كلامًا في الخارج، ورغم أنّنا لا نفهم معناه، إلّا أنّنا استنتجنا أنّهم يتحدّثون عنّا.

قرية أرادن صغيرة، وليست ذاتَ قيمة كبيرة، فهي تضمّ حوالي ثلاثين بيتًا، أطفالها طيبون، ومعظمهم شقر، والنّساء في حالة جيدة، ولكنهنّ يضعن حلقة في أنفهنّ، والرّجال طيبون، ومنشغلون في أعمال الزراعة، ويبدو أنّهم يعيشون بذكاء. ونادرًا ما يتركون قريتهم، حتّى معظمهم لم يذهبوا إلى العمادية، وهُم يستخرجون من قريتهم كلّ ما يحتاجون إليه من غذاء وكسوة.

٦ تشرين الأول (أكتوبر):

في السّاعة السّادسة، وبينما كنّا نجهّز أمتعتنا للرحيل، أقبل الكاهن قبل ذهابه إلى القدّاس ليتمنّى لنا سفرًا ميمونًا، فأعطيناه هديةً لفقرائه. وقد طلب منّا كمية من الكينين، ولكنّنا لم نكن نحمل سوى الاحتياطي الذي كان يقترب على النّفاد، وبما أننا كنّا نحتاجه بشدّة فقد رفضنا.

تركنا القريةَ عبر طريق مُحاط بسور من الحسك، ومليء بالحجارة والحصى، وسرْنا ببطء عبْر هضبات وجبال صغيرة، ثمّ اجتزنا جدولًا يتبع مسير الوادي الكبير في الوسط منه.

وصعدْنا بجهد المُنحدر المقابل، في منتصف الضفّة، وللمرّة الأخيرة نلاحظ صحنَ العمادية فوق جبال أخرى. سرْنا فوق أرض حمراء لا تنبتُ سوى أشجار سنديان صغيرة وفقيرة، وتنمو عليها عفصات بعددٍ كبير وبحجم البلوط.

وفي السّاعة العاشرة وصلنا إلى عينِ ماء، يبدو أنّها مُحاطة بالاهتمام، فوجدناها مُحاطةً بالحجارة، ويأتي القطعان للشّربَ منها، ثمّ عبرنا وادٍ آخر أرضه أشدُّ احمرارًا، والمنحدرُ الأيمن الذي نسلكه هو الوحيدُ الذي توجد به غابات بلوط، ورأينا به أيضًا توت شوكي أكبرَ حجمًا من الموجود في أوروبا، فنجد أنّ الثمرة الواحدة تبلغ حجمَ التّفاحة، طعمها لذيذ جدًّا وقليل اللّذوعة.

صادفنا خيمًا لبدوٍ شبه متوحّشين، وكان الرجال والنساء والأطفال عراةً مثل آدم وحواء، ويغتسلوًن في غدير، وكانوا منشغلين في أعمالهم، ولم يبدُ عليهم أقلّ حرج من وجودنا. توقّفنا أبعد قليلًا عنهم، بالقرب من عين ماء لتناول الغذاء، وبدءًا من هنا يصبح الطريق معمورًا، فمنذ أنْ وصلنا طريق الداودية، أي المنعطف المهمّ، ونحن نقابل قوافلَ كبيرةً مكوّنة من جياد وبغال تزعج حيواناتنا، وتسبّب صدمات عنيفة لصناديقنا، وأيضًا نصادفُ قطعان ماشيةٍ عديدة، وكانت أصواف الخراف طويلة جدًّا وملساء، وقابلنا أيضًا قبائلَ رعاة وبدو.

وتظهرُ في الطّريق آثارُ عمل جدّي، ولكن الطريق تالفٌ جدًّا بسبب انعدام الصّيانة، بحيث كدْنا نتيه مرّتين وسط الأدغال. تركنا رشفري لنتجه نحو الغرب، وقد حيّرني هذا الاتجاه، حتّى أنّني طلبت من سيمون أن يتأكّد إنْ كان الأدلّاء يسيرون في الاتّجاه الصحيح، فقال إنّهم يعرفون الطّريق، ومن المستحيل أن تحصل على أكثرَ من هذا من سواسي البغال.

تركْنا قرية (زاويته) إلى يسارنا، وبدأت أندهشُ كثيرًا من الاتّجاه المستمرّ نحو الغرب، حتّى أخبرني سيمون في المساء أنّنا بدلًا من التوجّه نحو القوس

ودير الربّان هرمزد، نتّجه نحو دهوك، وهذا ليس الطريقَ الذي أردتُ سلوكه، واتفقت مع سواس البغال عليه.

لقد اتّخذوا الاتجاهَ الذي يناسبهم، فغضبت كثيرًا، وأمرتُ بضرورة تلقي هؤلاء السّواس التّأديب المناسب الذي لا ينسوه أبدًا؛ لأنّهم تصرّفوا ضدّ اتفاقيتنا. وادعى صاحبُ القافلة المشاكس أنّ الطّريق الآخر أكثرُ خطورة، وأعطاني مائة سببٍ لذلك.

اتّبعنا ضفّة منحدرٍ شديدِ الخطورة، وصادفنا قطعَ صخورٍ عديدة متكسرة من أطراف الوادي، فترغمنا على الصّعود والنّزول عدّة مرّات، وتذكّرت حينها الطريق الذي سلكته في كابيليا.

وبعدَ مئات الأمتار مررْنا على بدوٍ أشعلوا النّيران لحمايتهم من الدببة والفهود، ولكنّنا لا نراهم بوضوح، لقد خيّم اللّيل، ولم أعدْ أرى شيئًا، ولكنّني أسيرُ خلف صوت أجراء بغال الأمتعة.

واجتزنا وديانًا ضيّقة من الوسط، وعندما خرجنا منها لمحْنا بعض النيران من بعيد، وعرفنا أنّها دهوك.

توجّهنا نحو خان، وتقع دهوك على الطّريق الواصل بين الموصل ووان، عبر تبليس وسعرت. وبما أنّنا وصلنا في وقت متأخّر، فإنّ صاحب الخان فتح لنا باستياء، دخلنا وسطَ فناء مملوء بالجياد والحمير، لدرجةٍ تجعل من الصعب علينا إفراغ أمتعتنا، وكنّا قلقين من التعرّض للسّرقة. وبدأنا نلعن سواس البغال مرّة أخرى، لأنّهم أرغمونا على اتّخاذ هذا الطريق، ولم يتّخذوا الطّريق الآخر؛ بل وحرصوا ألّا نعرف أنّهم غيّروا وجهتهم قبل أنْ نبتعد كثيرًا، ويكون من المستحيل العودةُ للخلف.

وفي مساء الغدِ سنصل إلى الدومينيكيّين في الموصل، حيث سنلقى استقبالًا ينسينا المشقّة التي عانيناها في الطّريق. أمّا الآن فقد اتّخذنا سكنًا في الطابق الأول من الخان، في غرفة نصلها بواسطةِ شرفةٍ خالية من الدرابزون، وضيّقة جدًّا، وذات فتحاتٍ كبيرة بوسع المرءِ أنْ يعبر من خلالها. أمّا السلّم الصاعد إليها فهو مكوّن من خمسٍ وثلاثين درجة، وكلّ درجة يبلغ ارتفاعها أربعين سنتيمترًا، ممّا يجعل الصعود إليهاً بحقائب ضخمة معجزةً كبيرة تحتاج إلى أقوى الأقوياء.

٧ تشرين الأول (أكتوبر):

قضيْنا ليلةً مريحة في هذا المأوى الآمن إلى حدّ ما، وفي الساعة الرابعة أيقظتُ جميع رجالي، حيث إنّ الطّريق إلى الموصل طويلٌ جدًّا. لم تشرق الشمس بعد، ونحن بالكاد نميّز جيادنا التي سرجناها بأنفسنا، ونحتاجُ إلى ساعتين لإعداد أمتعتنا.

إنّ قرية دهوك متوسّطةُ الأهمية، وتضمّ حوالي ستين بيتًا، وحاكمُها أمير، ويوجد تحت إمرته حوالي عشرين شرطيًّا (جندرمة)، وكان بها قلعة فيما مضى، ولكنّها الآن تالفة جدًّا، ويتّخذها الأمير الآن محلًّا لإقامته، ولكنّه بدأ في بناء مسكن جديد له.

ومِن المفترض أنْ يكون الطقس هنا حارًّا جدًّا، حيث إنّ جميع الأهالي اتخذوا احتياطاتهم، ووضعوا عرازيل أغصان على أسطح منازلهم، لكي يقيموا بها في هذه الفترة. ويوجد في السّاحة مقابل ذلك الخان السّيئ مقهى تركيّ صغير، مقام على طرازِ المباني البدائية للمرتادين. الطقسُ هنا واضحٌ ومضمون، فالبلدة مُحاطة من جانبيها الشّمالي الشرقي بجبالٍ عالية، ومعرّض من الجنوب الغربي لرياح جزيرة العرب المحرقة.

خلالَ بضع دقائق أصبحنا خارجَ المدينة، وسرنا بمحاذاة نهر (الرشفري) الذي يبلغ عرضُه حوالي أربعة أو خمسة أمتار، أمّا عمقه فيبلغ حوالي مترًا في المنتصف،

ضفافُه مليئة بالورديات، وعلى يمينه سهلٌ واسع قد فاض فيه النّهر عدّة مرّات فتجد الحشائش به عالية، ولكنّها تجفّ بسرعة بفعل الشمس، وتجد أيضًا عليقات وأحساك، أمّا إلى اليسار فيوجد تلٌّ مستقيم جدًّا يتبعه الطّريق، ونحن في وسط ضفافه، والفيضانات المتعاقبة التي تحدُث في هذا المكان توضّح سبب اختيار هذا الطريق على أنّه الأكثر خطورة على الإطلاق، إنّما في حمى من المياه.

بعد مسيرة ساعةٍ ونصف وصلنا إلى رأس هذا الجبل الصّغير، والتففنا حوله فوجدْنا أنفسنا في الصّحراء، وهذا هو سهلُ الموصل، الجانب الشمالي الشرقي من سهل شنعار الذي يرجع تاريخُه إلى الطوفان، حيث قيل إنّ أولاد نوح استقرّوا فيه، ثمّ بدأتِ الأرض تعمرُ من جديد بعد هذا الحدث- الطوفان- وهذا السّهل ذو وديان متموّجة طويلة وقليلةِ الارتفاع، وقد كنتُ آمل أن أكتشف في كلّ قمّة مرتفع سهلًا منبسطًا، ولكن بمجرّد وصولي لم أكنْ أجد سوى مرتفعٍ آخر يسيطر على الأفق مسافة كيلو مترين أو ثلاثة، وفي نهاية كلّ وادٍ قصير جدولٌ صغير، وإذا لم تمتصّه الرّمال يمتدّ حتّى يصبّ في نهر دجلة، الذي يوجد في مكانٍ قريب من الطريق، ونحنُ نراه من بعيد.

الشّمس لافحة، والطريقُ ترابي، وخطواتنا متعاقبةٌ بنفس الملل، ويبدو الطريق مرّة طويلًا، ومرّة قصيرًا. وقد بدأ العملُ في طريق يصلُ بين الموصل ودهوك، وجزيرة ابن عمر، وسعرت، وبدليس، وأرضروم، لكنّه مازال مجرّد حجارة مسحوقة، ولا تستطيع العجلاتُ السّيرَ عليه، أمّا القوافل فتسيرُ إلى جانبه، حيث إنّه لم ينجز سوى خطّ واحد، أمّا باقي الخطوط فمؤشّرة فقط، ويتبع هذا الطريق خطّ التلغراف، ويمرّ بكلّ من تللسقف، وتلكيف.

ولكنّنا لم نذهب من هذا الطريق، واتّخذنا طريقًا أوسط وأكثرَ استقامة، يقع بين الطّريق ونهر دجلة. المكان هنا خصبٌ وقليلُ الزراعة، وتوجد مساحات كبيرة غير مزروعة،

تليها حقولٌ ضخمة قد تمّ حصادها، تختلط بالأولى من بعيد، ولا يوجد أي دليل على الزراعة سوى السّنابل التي قطعت بالمنجل، أمّا المحراث الخشن فلا يسوي الأرض ويترك بها أثرًا دائمًا، وهذا المحراثُ عبارة عن مجرفة من الخشب.

صادفنا مجموعةً من ثلاثة أو أربعة مساكن لمزارعين يعيشون تائهين بدون ظلالٍ في هذا السّهل، حيث إنّه خالٍ تمامًا من الأشجار، ولا تنمو أيّ نبتة بجوار هذه الأكواخ الطينية. وعندما مررنا من هنا كانت الزّروع قد حصدت، والآن هم يعملون على فصل الحبوب عن السّنابل، بواسطة دائرة قطرها ثمانية أو عشرة أمتار، حيث تدور الجياد طوالَ النهار، معرّضين لأشعة الشمس الملتهبة، وهي مربوطة ببعضها، وهكذا تسحق التّبن الملقى تحت أقدامها بحوافرها.

يحتفظُ الأهالي بالحبوب في بيوتهم، أمّا التّبن فيجمعونه بعد تنقيته في أكوام عاليةٍ وطويلة، تغطّى بملاط مصنوع من التراب والماء، وأيّام الأمطار يخلف مستنقع، وأحيانًا تحفر آبار مياه تدرّ مياهًا غير صالحة للشّرب. توقفنا قرب أحد هذه المستنقعات لنريح حيواناتنا.

لقد تناولنا في هذا اليوم غداءً لنْ أنساه طوال حياتي، حيث كانت مؤنُنا قد نفدت، ولم يبقَ لدينا سوى عظم فخذِ بقر مطبوخ منذ أربعة أيام، أي أنّنا نحتاج لعيون فهد لنرى شريحة اللّحم، وكان مغلّفًا بالقرع، وبعض قطع فطر بالكاد تظهر، ولاستكمال الوجبة بيضتان مسلوقتان منذ أربعة أيّام أيضًا، وقليل من اللبن الجاف، أمّا الماء فكنّا نحصل عليه من المستنقع، حيث إنّ ماء البئر يابس.

بعد ساعة تقريبًا، جهّزنا جيادنا، وبدأنا بالرّحيل، كان الجوّ شديدَ الحرارة، وتموّجات الأرض الواسعة تتعاقب، وبعد السّاعة الخامسة انخفضت درجة الحرارة، والموصل التي كان يجب أن نراها من بعيد لم تظهرْ لنا بعد. وأخيرًا وصلنا هضبة

أخرى تطلّ على السّهل بأكمله، ومنها رأينا نهرَ دجلة يمتدّ كالأفعى في السهل البعيد، ولمحنا الموصل وسط الأفق تقريبًا. وعندما كانت مدينة نينوى موجودة، تلك العاصمة الكبيرة الزاهرة، كان المكان الذي نحنُ فيه الآن مقرًّا مؤقتًا للحاكم، في حالة إذا أراد الاستراحة من إزعاج المدينة لفترةٍ معيّنة، وأن تبقى المدينة تحت ناظريه، فيكون مثل النّسر الذي يحرس وليده من أعلى وأقربِ صخرة.

وهذه الهضبة التي تحتنا هي عبارةٌ عن بقايا حجارة، وليست من الأرض الطينيّة التي كنّا نسير عليها منذ الصباح، وبعد أوّلِ عملٍ تخريبي تمّ على أيدي البشر أقامت عواملُ الزّمن فيها كلّ أنواع الأطلال. ورغم أنّنا كنّا متعبين كثيرًا، إلّا أنّ رؤية الموصل من بعيد أمدّتنا بالنشاط والشجاعة، أمّا حيواناتنا فلم تكن تعلم بالأمر لذا لم تشعرْ بنفس الحماس، فقد كانت هي الأخرى مُنْهكة، ولم يكن يحملها على المسير سوى ضربات السّياط المؤلمة.

وبما أنّنا سنصل إلى الموصل في وقتٍ متأخّر، فقد أرسلت سيمون أمامنا ليخبر الدومينيكيّين بوصولنا، ويريهم أوراقنا، ويطلب منهم استضافتنا، وكان الوقت حينَها السابعة مساءًا، والأجواء مظلمة. إنّ نهر دجلة واسع وعميق، ولا يمكن عبوره خوضًا على الأقدام، كما أنّه يتفرّع إلى آلاف الجداول، واحتجنا إلى معبر كبير للوصول إلى جسر القوارب الذي يسمح لنا بدخول الموصل. ضفاف دجلة خصبة جدًّا، بقدْر ما يمكننا رؤيتها في هذا الظّلام، وهناك بيوت كثيرة مقامة بمحاذاة الضفاف.

اتّبعنا قناةً مائية، فسقط فيها أحدُ جياد الأمتعة، أمّا هاملن فقد اهتمّ بباقي القافلة، بينما ساعدتُ أنا الرجال في سحب الحصان الذي وقع في القناة، وكان سواس البغال يريدون اختصارَ الطريق، ولكننا تهْنا في الخرائب الكثيرة المحيطة بنينوى.

حتّى وجدنا أنفسنا وسطَ قوافل جِمالٍ نائمة، وعندما أيقظناها تعرّضنا للَعنات الجمّالين، وأخيرًا – وبصعوبة بالغة – استطعنا البقاءَ منتظمين. لمحنا شخصين أو ثلاثةً بالقرب من بضعة بيوت، فسألناهم عن الطّريق، وفجأة وجدنا الأهالي خارجين من منازلهم لرمْينا بالحجارة، فركضنا سريعًا لنتخلّص منهم، ونختفي في عمق الليل مرّة أخرى، وقمتُ بإطلاق بعض الطّلقات من مسدّسي، حتّى لا يتبعونا.

وسقطَ أحدُ جياد الأحْمال الذي كان يسير في مقدّمتنا، وعلى مسافة ليست بعيدةً منّا سائس كان يتبع أنوار الموصل، يقع السائس في حفرةٍ عمقها أربعة أمتار وعرضُها سبعة أمتار، وتبعثر الحملُ بالكامل وتكسّرت الأحزمة، وتأذّى الحيوان، وقضينا أكثرَ من نصف ساعة في إعادة الأمور إلى رشدها. وهذه الحفرة التي وقع فيها الحيوان هي مهدُ الخوصر الجاف، أنزلنا الحيوانات الأخرى في هذه الحفرة بحذر شديد، واتّبعنا آثار المجرى اليابس، حتّى وصلنا إلى جسر الطريق الذي ينبغي أنْ يصل إليه الطّريق الذي بدأ العمل فيه في دهوك في يوم ما، حيث إنّ الأتراك هنا لا يستعجلون.

اتّبعنا النقاطَ التلغرافية، وعبرنا فرعًا صغيرًا لدجلة سيرًا على الأقدام، وأخيرًا وصلْنا جسر الموصل، وكانت الجياد حينها غيرَ قادرةٍ على الوقوف من شدّة الإرهاق. كانت المدينة مظلمة، ووجدنا سيمون في انتظارنا، ففتح لنا الأبواب، ولاحظنا منظرَه الغريب، واتّضح لنا أنه أصيب بضربات الحجارة في القرية السابق ذكرها التي عوملنا فيها بطريقةٍ سيئة. وأخبرنا أنه جاء إلى هنا، وقدّم نفسه للدومينيكيّين، الذين استقبلوه بشكل سيئ، وقالوا له:

(ثمّة خانات في المدينة، فليقض فيها هؤلاء المسافرون) أمّا الآباء فكان جوابهم كالتّالي: (وسنرى غدًا ما بوسعنا أن نعمل لهم).

لا يُعقل أن يصل فرنسيّان مرهقان هكذا، فيُستقبَلان بهذه الطريقة من قبل مرسلين فرنسيّين، مع أنّنا قدمنا لهم رسائلَ توصية من البيت العام للرهينة، ورسالة من الحكومة، على كلّ حال.. غدًا سأطلب شرحًا لهذه المعاملة، أمّا الآن فيجب أنْ نحصل على مأوى، فلن نستطيع النومَ في الساحة العامّة من الموصل، اتجهنا إلى عدّة خانات، ولكنّهم تحجّجوا بالوقت المتأخّر، وكأنّه لا يوجد لديهم مأوى لهؤلاء الكلاب.

ورغم أنّ سيمون سبقَ وأخبرني أنّ القنصل غائب، إلّا أنّني طلبت منه إرشادي إلى القنصلية، فلم يكنْ أمامي أيّ حلّ آخر، وبعد ربع ساعةٍ من المسير وسط طرقاتٍ ضيّقة ومتشابهة، وصلنا إلى القنصلية، وبعد عدّة ضربات على الباب يتردّد البوّاب في استقبالنا، ولكنّه يتذكّرنا عندما بلّغته باسمي، ويتذكّر أنّ المسيو- السيد- سيوفي ينتظرُني، وأنّه تحدث عن وصولي عدّة مرّات، كما أنه وضع رسائلي في مكانٍ ما هنا، وأخيرًا يفتح البوّاب باب القنصلية، فننزل أحمالنا، وبما أنّنا وجدنا الغرفَ مغلقة فقد أفرغَ لنا مسكنه لنقيم به، فنصبنا أسرّتنا به، وأحضر لنا خبزًا، وخمرًا، وجبنَ ماعز، وإنّني أتذكّر أنّها أكثرُ وجبة استمتعت بها هناك.

أعطاني القواص رسائلي، ووجدتُ مِن بينها رسالة من أختي الصغيرة تقول فيها: (تشجّع). وفي هذه الليلة نمنا سعداء تحت حماية العلم الفرنسي المنشور على الحائط، فقد وصلنا إلى نهاية هذه الرّحلة الطويلة.

الفصلُ الثّالث

الموصل- نينوى- خورسباد

محتوياتُ هذا الفصل:

لدى الدومينيكيّين، المونسينور ألتماير، الدّيوان، قنصل إنجلترا، المنارة المسيحية، برج السّاعة، الموصل والشرق، تأسيسها، أطراف الموصل، النبي يونس، طرقات الموصل، الأسواق والمقاهي، الاسترخاء (الكيف)، العربات، المونسينور (المطران) بهنام بني، الأكلاك، الخشبُ في الموصل، جسر قرب النهر، المقابر، مدارسُ الأخوات الراهبات والآباء (الدومينيكيّين)، ومطبعتهم، الأسطرنجيلية، السّريانية، الكلدانية، الأسوار، تغيّرات مجرى دجلة، حبّة (بثور) الموصل، بناء الكلك، زيارة السلطات، استقبال على الطريقة التركية، السكاير، غداء في القنصلية الإنجليزية، قصّة دببة، ضفافُ دجلة، بطائح وغدران، دراج، أسماك، عيون كبريتية، النّائحات- المعدّدات- زيارة أطلال نينوى وخورسباد، تلّ قوينجق، بوتا، خورسباد، الحفريات، بيوتُ مزارعين فلّاحين، حائط طابوق مرسوم، تلول تخفي العنقاء، مذبح ثلاثيّ الأرجل، كيف حفظتُ الأطلال، تأسيسُ القصور، الغرف، الجدران، السطوح، الأيّام، مجملُ القصور، سنحاريب وسرجون، الكتابةُ المسمارية، وأنواع الألفباء المختلفة، وكيف اكتشفت، مسيو سيوفي، مسجدُ السلطان لؤلؤ، الصابئة، من الموصل إلى البحر المتوسط، بالمير (تدمر)، الدّير، سنجار، أورفة، باعة السوق، تجهيزُ الكلك، الرّحيل عن الموصل.

من ٨ إلى ١٥ تشرين الأوّل

بمجرّد استيقاظنا، رجونا القواص أن يسخّن لنا ماء، وبدأنا نغتسل، لا يمكن أن يشعرَ بأهمية ومتعة الاستحمام سوى مَن حُرم منه فترة طويلة؛ أي أسبوعًا كاملًا، فنحنُ منذ تسعة وعشرين يومًا ننام بثيابنا، فوق أسرة المخيم، وحتى مساء أمس، وبعد أن منّينا أنفسَنا بالحصول على سرير، وجدنا أنفسّنا في أمسّ الحاجة إلى احتضان مخدّتنا الحقيرة.

وبعد أنِ اغتسلنا، ذهبنا إلى الدومينيكيّين، وقد كان أحدُهم ينوب عن القنصل أثناءَ غيابه، وكان البيت على بُعد خطوتين، وعند وصولنا إليه كان المونسنيور ألتماير، رئيس أساقفة خلقيدونية والقاصد على ما بين النّهرين، على وشك الخروج، وكان يبدو على عجلةٍ من أمره، فاعتذر منّا، ووجّهنا إلى الأب الناظر- الرئيس- الأب دفال الذي استقبلنا بكلّ كرم.

تحدّثنا معه لمدّة نصف ساعة، وسألناه عن الاستقبال السيئ الذي قوبلنا به مساءَ أمس، فأخبرنا بأنّ سيمون عندما وصل إليهم كان يلهثُ من جرّاء الركض الذي قام به عند هروبه من أولئك الذين استقبلوه بوابلِ من الحجارة، وعندما رأوه هنا اعتقدوا أنّه سكران، كما أنّه أصدر إليهم أوامرَ قائلًا: (هناك أوروبّيان سيصلان، أعدّا لهما غرفة، وامضوا أمامها).

فأصيب الآباءُ بصدمة في بادئ الأمر، واعتقدوا أنّنا قد سُرقنا، وأنّ هذا الرجل ليس سوى لصٍّ يحمل رسائلنا، وبما أنّ الوقت كان متأخرًا، فقد طلبوا منه أن ينصرف.

وأعتقد أنّ هذا التفسير حقيقي، فقد استقبلنا هؤلاء الأشخاص اليوم استقبالًا ودودًا للغاية، لدرجة أنّنا نسينا ما لاقيناه منهم بالأمس، ورغم ذلك إلّا أنني لديّ تعليق عليهم، فإذا كانوا حقًّا يعتقدون أنّ سيمون سارقًا أو مجروحًا، أمَا كان يتوجّب عليهم قبل كلّ شيء أن يوقفوه ويتأكّدوا من شكوكهم نحوه؟

قدّم لنا الآباء المحترمون غرفةً كبيرة وجميلة بسريريْن، وقضينا الصباح في ترتيبِ أمتعتنا، وانتهينا في الظّهيرة، وذهبنا لتناول الغداء في غرفة الأكل. وجلست أنا إلى جانب المونسينور ألتماير، وهاملن قرب الأب النّاظر، وقد علمت أنّ المونسينور على وشك السّفر إلى بغداد، وقد كان على أهْبة الاستعداد، ويبدو أنّ مهمّته صعبة، إذ أنّه سيقود خمس راهبات لإدارة روضة أطفال، وسيرافقه السّكرتيران: الأب هنري، والأب دي سيكونزاك، إلى جانب فرقة كبيرة.

وعلمتُ أيضًا أنّه أمرَ بصنع كلك خاصّ لهذه الرحلة، إلى جانب تجهيزات كبيرة؛ حيث أنّهم في هذه الحالات يستغرقون من ثمانية إلى عشرة أيام- وربما أكثر- لركوب نهر دجلة، وطوالَ هذا الوقت لا يوجد طعام في الطريق، إذ أنّ نهر دجلة يمتدّ في الصحراء.

اجتمع هؤلاء الأشخاص السّابق ذكرهم بعد الغداء في ديوان؛ لتبادل الأحاديث على الطّريقة الشرقية، ففي هذا الوقت من النهار تشتدّ الحرارة كثيرًا؛ لذا لا يمكن لأحدٍ أن يعمل أو ينام فيها.

أمّا الديوانُ هذا فهو عبارة عن غرفةٍ مُقامة بشكلٍ يناسب هذه الحالة، وهي موجودةٌ في جميع بيوت الموصل المريحة، وهي غرفةٌ كبيرة مربّعة الشكل، وسقفها عبارة عن قبّة تكون في الطّابق الأرضي، ولكنّها بعلو طابقين، معرّضة الانتفاخ للشّمال، ولا جدار لها في هذه الجهة.

وهُم يجتمعون بها لتدخين الغليون أو النّرجيلة، ولتبادل الأحاديث واستقبال الضيوف.

والحقيقة أنّني لم أشعرْ بهذه الراحة في أيّ مكان آخر في الحياة الشرقية؛ أمّا عن الغليون، فلا يجب أنْ نخلط بينه وبين (القليان)، كما أنّه يسمّى (شيبوك)، وهو السّبيل ذو الأنبوب الطّويل المستقيم والصّلب، وهو عادة يُصنَع من جذع ياسمين، موقدة (مكان النّار) على الأرض، والطّرف الآخر منه ينتهي بقطعةٍ كبيرة من العنب، تنطبق على الشّفتين دون أن تشدّ عليها بالأسنان، أي أنّها تشبه الغلايين الأوروبّية. أمّا التبغ الذي يدخّنونه فهو عذبٌ وشهي، وأكثر عطرًا من تبوغنا، ولكنّه خالٍ من النّكهة الخاصّة، فهو من التّبغ، تافه وسيّئ المذاق كالتبغ الذي يباع في باريس تحت اسم التّبغ التركي.

وعندما كنّا نوشك على الخروج قرابةَ الساعة الثانية، جاء دليلُ القافلة ليسوي حسابه، كما طلبَ سيمون أن يبقى برفقتنا عدّة أيّام أخرى، فوافقنا حيث إنّه رغم المشاكل التي يسبّبها لنا إلّا أنّنا نحتاج له في قضاء بعض الأمور.

ذهبنا لزيارة قنصل إنجلترا الذي كان زميلُه في وان قد رجانا أنْ نوصّل له كلمة، وقد علمت أنّ هذا القنصل أصيبَ بحمّى خبيثة، لكنّه يتعافى منها الآن، ولا يبدو أنّه وجد الإقامة في الموصل جيّدة، وهو يحبّ الصّيد كثيرًا، ويعتبره أهمّ وسيلة ليرفّه بها عن نفسه؛ لذا عادةً يذهبُ لمدّة ثلاثة أو أربعة أيام للصّيد وحده، برفقة خادمٍ في الجبال على بُعد مسيرة يوم واحد من الموصل.

قدّم لنا القنصلُ بدلًا من القهوة بيرةً إنجليزية، التي يجب أن تكون جيدة في إنجلترا، ولكنْ يبدو أنّها قد تأثّرت بالسّفر إلى هنا. في السّاعة الرابعة عدنا إلى الآباء،

وصعدْنا إلى قبّة ناقوس الكنيسة التي يظهر منها شكلُ المدينة بالكامل، ويبدو أنّهم بذلوا مجهودًا كبيرًا في بناء قبّة الأجراس هذه، إذ لم يكنْ من السّهل أن يرى المسلمون منارةً مسيحية مرتفعة، وهكذا إلّا جانب منائر النّبي ذي النون.

ويبدو أنّهم تغلّبوا على هذه المشكلة بوضع ساعةٍ ذاتِ أجراس تعلن عن المواقيت.

وقد كانت هذه الطّريقة الوحيدة التي تمكّن بها الدومينيكيّون أنْ يقنعوا الناس بسماع صوتِ الأجراس، فنجد أنّ الأهالي هنا يجدون السّاعة مريحة، وأحيانًا يستشيرونها، ويُطلقون على القبّة اسم برج السّاعة. والوقت في هذه السّاعة مقسّمٌ إلى الطّريقة التركية (العربية)؛ حيث تدقّ السّاعة الأولى عند مغيب الشمس، وينبغي ضبطُ السّاعة كلّ ثلاثة أو أربعة أيام.

والأمرُ الذي يدعو للأسف هو وقوعُ هذه الكنيسة في مكانٍ منخفض من المدينة، وليس لها منظرٌ مفتوح سوى من أعلى قبّة الأجراس، ومن هذا الموقع فقط يُمكنك رؤية الأسطح المستوية للمنازل ذات اللّون الداكن، وكلّها ذات ارتفاع متساوٍ، وتعلو عنها بعضُ المساجد ومنائرها، وقد رأيت إحدى المنائر مائلة، وقد زعم بعض الأهالي أنّها إحدى المنائر التي انحنتْ أمام النبي.

وتعتبر الموصلُ أحدَ أهمّ المدن في بلاد ما بين النهرين، بسبب موقعها، فهي المرحلةُ العظمى في طريق الغرب والشّرق، وهي التي تربط بين أوروبّا والهند في جميع الطّرق المقترحة (الخيالية) لسكك حديد (انظر الخريطة).


CARTE
DU
KURDISTAN
GÉORGIE, ARMÉNIE, MÉSOPOTAMIE ET PERSE-OCC^LE
Frontières Turco-Persanes
Dressée par H. BINDER
D'après les Cartes des États Majors Russe et Anglais
celles de KIEPERT de STIELER et de JOHNSTON
rectifiées par l'auteur sur le parcours de son itinéraire
MER
NOIRE
MER
CASPIENNE
PERSE
ARABIE
Déserts de Sable
GOLFE
PERSIQUE
LÉGENDE
Itinéraire de l'auteur
Limites politiques
Échelle

كما أنّها تقع على الطّريق كمركز خدمات مهمّ، حيث إنّها تقع على نهر دجلة، في منطقة يصبحُ فيها النهر صالحًا للملاحة بالنّسبة إلى القوارب ذات الأهمية، كما تصلُ إليها قواربُ أخرى من سعرت وديار بكر، إلى جانب أنّ الموصل هي المركز الذي تلتقي فيه كلّ القوافل القادمة من الشّمال والغرب والشرق، ومنها تحمل حمولتها إلى بغداد بواسطة النهر، ومن هناك تنقل إلى أوروبّا في قوارب تجارية. وتحتوي هذه المدينةُ على حوالي أربعينَ ألف نسمة، ويبدو أنّها لم تؤسّس منذ زمن طويل، إذ أنّها اكتسبت أهميّتها منذ العهد الإسلامي، بفضل تجارتها النّشطة أوّلًا، ثمّ بفضل صناعة الأقمشة البديعة.

أمّا الآن فسببُ شهرتها هو تاريخُها فقط، ولكنّ موقعها الجيد قد يجعلها ذات أهميّة في أحدِ الأيام. وبالمقابل من الموصل، على الضّفة الأخرى من دجلة، يقع تلّ قوينجق؛ حيث نينوى القديمة، ويبدو أنّ موقعها قد اختير بشكلٍ عجيب، كعاصمة للإمبراطورية الآشورية، ومركزٍ كبير للسّكان، وذلك لأنّها تقعُ بالقرب من الجبال، وبوسْعها أن تستمدّ منها ما ينقصها من السّهل، كما أنّها تسيطر- أو تطلّ- بكلّ سهولةٍ على مساحات البلد المستوية لبلاد ما بين النهرين.

ومن المؤكّد أنّ نهر دجلة، مثل جميع أنهار العالم، لم يكن له حجمُ مياه أكبر، ولم يستخدَم لمواصلات أكثر أهميّة ممّا هو عليه الآن.

أمّا تلّ قوينجق الذي سأتحدّث عنه فيما بعد، فيوجد بجواره قرية النبي يونس الواقعة على هضبةٍ صغيرة. وقد قيل لي إنّ رفاق النّبي يونس والتينة التي بكى عليها موجودان في الجامع، وهذا الجامع مبنيّ على التل الذي بُنيت عليه القرية، وقد ذكر كلّ من بوتا وبلاس اللذيْن درسا التلّ أنّ هذا التلّ يضمّ بقايا وآثارًا سيكون من المثير جدًّا إظهارُها للعالم، ولكنْ لإجراء هذا ينبغي القيامُ بالهدم الضروري لإظهار الحفريّات، وهذا لن يحدُث بسبب التعصّب الشعبي والإدارة السيئة لحكومة جاهلة.

بقينا نسترسلُ في الحديث حتّى جاء موعدُ العشاء، وعند جلوسنا على المائدة أنا وهاملن، لم نستطعِ التوقّف عن التبسّم، حيث إنّنا أصبنا بالخذلان عندما رأينا وجبةَ العشاء ضئيلة ومكوّنة من خضروات وجبن فقط، ولكنّ الآباء لاحظوا هذا فقدّموا لنا طبقَ بيض. وبعد الانتهاء من الطّعام اجتمعنا مرّة أخرى في الديوان، حتّى نتحدّث مرّة أخرى حول منضدةٍ فوقها فانوس كبير. وخلال نصف ساعةٍ انسحب الآباء لإتمام واجباتهم الدّينية، وذهبنا نحن إلى غرفتنا، وللمرّة الأولى منذ تسعة وعشرين يومًا ننعمُ بالنّوم وسط شراشف سريرٍ حقيقي.

٩ تشرين الأول (أكتوبر):

كنتُ أتمنّى الاسترخاء طوالَ الصباح، ولكنّني اضطررت للنهوض باكرًا لكتابة بعض الرسائل لأنّ البريد ينطلق اليوم في السّاعة العاشرة، وهو لا يرحل سوى كلّ ثمانية أيام.

نزلنا في السّاعة العاشرة، لنجد الأدباءَ مجتمعين في الديوان، وقد كان المونسينور يستقبل زيارات التّوديع؛ لأنّه سينطلق في رحلته هذا المساء. وبعد بضع دقائق من تبادل الأحاديث، انطلقت أنا وهاملن برفقة سيمون وبعض القواصين إلى القنصلية.

وكان الجوّ شديدَ الحرارة في تلك الأزقّة الضّيقة الصغيرة، والبيوت متشابهة وداكنة؛ حيث إنّها مشيّدة من التّراب المسحوق والمجفّف بالشمس بحيث يعكس الحرارةَ ويحافظ عليها في آنٍ واحد، وهذه الأزقّة نظيفة إلى حدّ ما، بعضها مبلط بألواح من الحجر، ولكنّها مثل المتاهة، ويجب على مَن يدخلها أن يكون معتادًا عليها ليتجوّل بها جيدًا.

وخلالَ هذا الطريق كنّا نمرّ أحيانًا تحت بيتٍ معقود على شكل قنطرة، فنجد حينها بعضّ الظلّ والبرودة، وعادةً تكون هذه القنطرة مُنخفضة، فيضطر الفارس إلى النّزول من الفرس ليعبرها. وبين الحين والآخر نصادف حميرًا صغيرة، تختفي تحت حمولةِ حزم الحطب أو التّبن، فينبغي علينا الالتصاقُ بالجدران حتّى لا نتعرض للتّدافع والتخرق.

وأمامنا رأينا ساحةً عارية مفتوحة، سرعان ما وصلتها قافلةٌ بحميرها وجيادها وجمالها بالرزم، فيها بغالٌ وهودج مخصّص للنّساء. وهذا الهودج عبارة عن عربة أشبهُ بمنبر، فهي صندوق مربّع ذو ستّ مرايا كالبرلينية القديمة، ولها أبوابٌ ذات مجرّات مثبّتة فوق محامل يوضَع بينها بغلان يحملانها؛ بغل في الأمام وآخر في الخلف.

وهذه الطّريقةُ في التنقّل هي الأكثرُ ترفًا في بلاد العرب، وينبغي أن يكون هناك حيوانان آخران للتبديل، حيث إنّ الصّندوق ثقيل، ويجلس به شخصان، لذا لا تستطيع الحيوانات التي تحمله أن تستمرّ في ذلك أكثر من نصف النهار، لذا ينبغي أنْ يكون لديهم أربعةُ حيوانات تسير في خطى متساوية وبصعوبة، ولكن هذا الهودج لا يأمن من الصدمات والأذى، خاصّة عند السّير في طريق غير مستوٍ أو مستصلح، ويتمّ تثبيت المحامل غير المرنة بشكلٍ مباشر على بردعة الحصان بواسطة سلاسل.

وعند دخولنا السّوق، رأينا أنّ الدكاكين صغيرة ومنخفضة، وهي عبارة عن حوانيتَ صغيرة مكعّبة الشكل، تشبه الخزانات، بمحاذاة طريق ضيق، تتوسطه ساقية تزعجُ السّائرين كثيرًا؛ حيث إنّ المنحدر يدفعك نحو الوسط باستمرار، ويغطي هذا الممرّ جذوع وأغصان (حصائر) تشكّل مظلّة كبيرة، فيكون الممرّ مثل الرواق الذي يتوفّر تحت ظلّه بعض الرطوبة. ومن وقتٍ إلى آخر نصادف حصانًا أو جَملًا يغلق الطّريق تمامًا، حتّى أنّه يصبح أكبرَ ممّا هو عليه في هذا الممرّ الضيق.

وبعد أنْ قطعنا بالتّوالي هذه الأنحاء: سوق الصفارين، وحي الخفافين، وتجار الأقمشة، والخزافين الفخارين، والصاغة والقصابين.

وقد كان سوقُ القصّابين سيئًا جدًّا بسبب كثرة الذّباب ورائحة اللحم المتفسّخ، الذي يتعفّن بسرعة بسبب شدّة الحرارة، فقد وصلنا إلى ساحة أخرى مختلفة كثيرًا عن الأخرى.

كانت الفوضى والحركةُ تعمّ هذه الساحة، فهي أكثرُ حركةً من أسواق الهال في باريس في السّاعة الخامسة صباحًا، حيث يملؤها باعةُ الفواكه، والبطيخ والرقي والحلويات، ويشغلونها ببسطهم، ويتجوّل المشترون بوسطها، وحولها المقاهي وأكواخ خشبية وجصية، يجلسُ بها الرّواد بثيابهم على مقاعد حصران يدخّنون الشيبوك، والنّرجيلة، والغليان، ويشربون القهوة، ويقضون وقتهم (الكيف).

الطّابقان الأرضيّان من المقهى مزدحمان، أمّا الطابق العلوي فلا تجد به أيّ مكان. لقد حان موعدُ العودة إلى مسكننا لأنّ الوقت يمضي سريعًا؛ لذا طلبنا من القواص إرشادَنا إلى أقصر طريق. ولا أعلم كيف يمكنُه التفريق بين الطرقات، وهي كلّها بنفس الشّكل، عبارة عن زوايا ومنعرجات، وخطوط مستقيمة، وفي الأطراف جدران عارية.

الحياةُ في البلاد الشّرقية حميمية، فتجد أنّ الشبابيك مفتوحة في الجدران الدّاخلية، وخلف باب الدّخول، يوجد جدارٌ يمنع المارّين من رؤية مَن بالبيت إذا كان البابُ مفتوحًا. وصلنا إلى الدّير، فوجدنا المونسينور ألتماير يتقبّل عبارات الودّ من كلّ المجتمعين لمشاهدة رحيله إلى الموصل.

ثمّ جلسنا إلى مائدة الغداء، فقدّموا لنا حلويات المنّ، وهذه هي المرّة الأولى التي أتناول فيها هذه الحلويات، وهي فعلًا لذيذةُ المذاق، وهو عبارة عن مزيج من المنّ

واللوز (الجوز) والحليب والطّحين والسكر والعسل، يتمّ سحقهم جيدًا ويشكّلون كقرص صغير.

وبعدَ الأكل اجتمعنا في الدّيوان كالعادة، وتبادلنا الأحاديث مع المونسينور ألتماير حتّى يحين موعدُ مغادرته، وفي هذا الوقت جاء رئيس الأساقفة الأرمني (السرياني)، وهو المونسينور (المطران) بهنام بنى لرؤية زميله، متمنيًا لو كان بإمكانه مرافقته، وهذا الرجل ذكي جدًّا وذو فضلٍ كبير.

وأخيرًا حان موعدُ مغادرة المونسينور ألتماير، في موكبٍ حقيقي: مكوّن من ستّة قواصين بأزيائهم الرّسمية يتقدّمون الموكب، وخلفهم رئيسُ الأساقفة، واتبعناهم نحن وسط الرهبان، وبالتّحديد بين الأب دي سيكونزاك والأب هنري، اللّذيْن نعدهما بملاقتها قريبًا في بغداد.

وخلفنا يسير طلبةُ المدارس، وفي أقلّ من ربع ساعةٍ وصلنا إلى ضفة النهر حيث توجد القوارب في الجنوب الشرقي من الموصل، خارج الأسوار، في ضاحية صغيرة.

يبدو أنّهم جمعوا جميعَ الحقائب في قاربٍ واحدٍ تحمله مائتا قربة، إلى جانب التّجهيزات والخدم والجندرمة- الشرطة-، أمّا القارب الآخر فهو محمول على مائتي وعشرين قربة، وعلى متنِه خيمة منصوبة ومقسومة إلى جزأين؛ واحد للآباء والآخر للرّاهبات.

لا يوجد أخشابٌ في الموصل، إذْ لا تنمو بها أيّ أشجار، والريف بالكامل يبدو كظهرِ صحراءَ جرداء. أمّا الخشب الذي يصنعونَ منه القوارب فيصل إليهم من مناطقَ واقعةٍ بالقرب من ديار بكر وسعرت وبتليس، ويتمّ إلقاء الأشجار المقطوعة

في نهاية نهر دجلة لتصل إلى الموصل لتُباع بها بسعرٍ جيد، وعندما تصل إلى بغداد تُباع بسعر مضاعَف.

وتُصنع هذه القوارب كالتالي:

يتمّ قسمُ سيقان الأشجار إلى نصفيْن، وتشدّ بواسطة أربطة وجذوع، وتوضع تحتَها القربُ المنفوخة بالهواء، ويتمّ استئجار هذه القرب من قِبَل أشخاص يقومون بتأجيرها مقابل خمسة قروش للقربة.

سرْنا في هذا الموكب وكأنّنا في الوداع الأخير، وسار الكلكان بهدوء في الاتّجاه المطلوب، أمّا نحن فقد صعدنا إلى سطح التلغراف الأوروبّي الذي يطلّ على النّهر، وعلى قسمٍ من المدينة؛ لمشاهدة الكلكين يبتعدان عن الموصل.

كما رأينا أمامَنا قرية النبي يونس، وإلى اليسار جسر الموصل، وقد قام سكان (بونة) ببناء جسرٍ على بُعد فرسخين من (ساوون) بفضل حميّتهم، ويبدو أن بيرون عندما مازح أهاليَ بورغونين لم يكن يفكّر أنّ أشعاره هذه قد تنطبق على الموصليّين، وقد كان من المقرّر تشييدُ جسرٍ على دجلة في الموصل.

فقاموا باختيار أكثر أجزاءِ النّهر ضيقًا؛ حيث إنّ عرض النهر يبلغ مائة وثمانية وستين مترًا في هذا المكان، ولكنّهم لم يفكّروا أنّ هذا المكان هو الأكثر عمقًا في النهر.

ونظرًا للحاجة الملحّة لبناء جسر، فقد راح الأهالي يطالبون بإصدار، ولم يكن بوسْعهم بناءُ جسرٍ على النهر، لذا قاموا ببنائه إلى جانبه، وكما قيل لهم إنّه سينفعهم في حالة الفيضانات.

وبقي لديهم جسرُ القوارب؛ لذا فكانوا يضطرّون إلى العبور بواسطة الزوارق، وبما أنّ الأهالي يجدون العبورَ إلى الضفّة الأخرى بهذه الطريقة أمرًا سهلًا،

وأنّ الفيضان عادة ما يتجاوز السّد؛ فقد كان الجسرُ غير صالح أو مفيدٍ مطلقًا. خلف البيت توجد مساحةٌ كبيرة فارغة تمتدّ حتّى الأسوار كأنّها منطقة عسكرية.

في هذه المساحة الواسعة يتمّ دفنُ الموتى دونَ اهتمام بنظامها، ولكنها جميعًا توجّه نحو مكّة. ولا يوجد شيء أكثرُ بساطة من هذه المقابر، فهي ساحة عامّة، تستخدم قبورها عادةً كمصطبات، حتّى أنّ الناس يدوسونها دونَ أيّ اعتبار، ممّا يدفع الأوروبيّين للقيام بنفس الأمرِ دون اهتمام.

والأطفالُ يلعبون حول القبور، كما تستريح قوافلُ الجِمال الكبيرة في وسطها، حتّى أنّهم يتركون جِمالهم تأكل من الأعشاب الحقيرة التي تنبت في زوايا الصخور، وقد علمت أنّ المسلمين يسرعون في دفن موتاهم، فتجدهم بعد ساعتين من الوفاة يدفنونهم، دون التأكّد من الوفاة؛ لذا فهم قدْ يخطئون ويدفنون أحدَهم وهو حيّ، وهذا لأنّهم يعتقدون أنّ جسد الميت يتألّم حتّى يدفن. بعد قليل اختفى القاربان، فعدنا إلى الدّير، ونحن ندخّن الشيبوك، ونتحدّث مع الأب دفال، الذي تركنا لنستريح على الطّريقة الشرقية، وبالفعل ارتحنا بعد إرهاق طويل.

١٠ تشرين الأول (أكتوبر):

قضيْنا الصّباح في تنظيم ملاحظاتنا، ثمّ قمنا بزيارة الرّاهبات اللواتي لهنّ بيتٌ بالقرب من بيت الآباء. وقد جعلونا نشاهدُ بيتهنّ بالكامل، بدءًا من المستشفى وحتى غرف النّوم والروضة، ومدرسة الأطفال الصّغار الذين يعلمونهم الحروف الفرنسية، والحروف العربية أيضًا.

لقد أعجبتُ كثيرًا بالصّبر الذي يتربّى بفضله هؤلاء الصغار، وهناك الكثير من الفتيات اللّواتي يتركن المدرسة في سنّ مبكّرة، خاصّة الفتيات المسلمات؛ لأنهنّ تتمّ خطوبتهنّ وهنّ مازلنَ في المدرسة، وغالبًا ما يتزوّجن في سنّ العاشرة.

أمّا الأولاد فيخرجونَ من مدرسة الراهبات، ثمّ يلتحقون بمدرسة الآباء لاستكمال تعليمهم.

وعندما رجعنا للدّير (الجماعة) دعانا الآباء إلى زيارة مبناهم الذي يزداد اتساعًا يومًا بعد الآخر، ويستهوي كلّ عام أتباعًا جددًا، وهؤلاء الآباء لا يحاولون حتّى العمل مع المسلمين؛ لأنّ هدايتهم محظورة. زرنا المدارسَ والمطبعة القائمة بشكل جيّد، التي يطبع بها الكتبُ الدينية بالعديد من اللغات كالأرمينية- الآرامية- والإسطرنجيلية، والكلدانية، والسريانية، العربية.

وجميعُ العاملين والموظّفين بهذه المطبعة من الشّباب الذين تربّوا على أيدي الرّهبان (الدومينيكيّين). وبالرغم من أنّ هؤلاء الشّباب حسنوا التصرّف، إلّا أنّهم لم يتخلّصوا من عادتهم المتأصلة ألا وهي البطء. بعد انتهائنا من هذه الزيارة اتجهنا إلى الدّيوان للاستراحة، فقابلنا هناك القنصلَ الإنجليزي الذي جاء لردّ زيارتنا والاعتذارِ، على أنّه لم يستطع تقديم احترامه للمونسينور ألتمايز قبل سفره، ولدعوتنا للغداء يوم غد.

وبعدَ الظّهر، إذْ لم يكن للآباء مدرسة، عرضوا علينا القيامَ بجولة حول الأسوار، وكلّفنا أحد الحمّالين بحمل جهازنا الفوتوغرافي، واتّجهنا أولًا إلى التلغراف لنرى منه منظرًا عامًّا للجسر الشّهير وللمدينة.

لاحظْنا أنّ القسم الخارجي للأسوار مخصّصٌ بالكامل للمقابر، كما ذكرت سابقًا، وهذا المكانُ ساحر، خاصّة في فصل الربيع بعد موسم الأمطار؛ لأنّ هذا السّهل الصّحراوي الذي قد يعتقدُ المرءُ أنّه ليس به سوى الرمال والأرض الصلبة، مليء بالأعشاب والأزهار وكأنّه حديقة غنّاء؛ لذا تجدُ الأهالي يتركون المدينة للتخييم فيه، وتحيط حيواناتهم بخيمهم.

وتبدأ مواقيتُ الخصوبة هذه في شهر كانون الثاني، وهي فترة ليست طويلة؛ لأنّ الأهالي والحيوانات سَرعان ما ينهبون هذا العشب، وتجد أنّ الشمس سرعان ما تعطي الأرضَ مظهرَ الصّحراء الخاوية المحزن. عُمرُ هذه الأسوار تقريبًا نصف قرن؛ حيث إنّها شيّدت في عهد الباشا أحمد.

استكملْنا طريقنا، فلاحظنا مرقدًا صغيرًا ذا أهميّة أكبر، وهناك أربعة أعمدة من الحجر يعلوها سقفٌ في الزوايا الأربعة للضّريح، ووجدنا الكثير من الأطفال يلعبون هناك، وعلمت أنّه حيّهم العام. إنّ هذا الضّريح المقام في الزاوية الشمالية الغربية قد شيّده الآباء (الدومينكيّون) تكريماً لذكرى مسلمٍ ثري، كان قد قدّر العمل المفيد للمرسلين فقدّم لهم خدمات عظيمة.

وأخيرًا وجدنا أنفسَنا أمام الواجهة الأخيرة، حيث الجهة الشمالية التي كانت مغمورةً بفرع من نهر دجلة. وأمام بابِ هذه الجهة تكثر المأكولاتُ القادمة من ديار بكر، وقد أخبرني الأبُ الفاضل دفال، ناظر- رئيس- الرسالة (الدومينيكية) الذي يقيمُ في بلاد ما بين النّهرين منذ أكثر من ثلاثين عامًا؛ أنّه استعمل هذه الأكلات.

ويعتبر نهرُ دجلة أكثر الأنهار تقلبًا وإزعاجًا، فهو يغيّر مجراه، كما يغير (دون جوان) عشيقاته. فتجد أنّ عامًا من الأمطار والفيضانات يحمله كيلو متران عن المكان الذي كان يجري به بثبات، أو كان يظنّ ذلك. فأنا أظنّ أنّ الموصل التي هي الآن واقعةٌ على الضفّة اليمنى منه، قد كانت في أيّام تأسيسها واقعة على الضفة اليسرى، أي في مكان ضاحية نينوى.

ومن أعلى الباب الشّمالي تأمّلنا المدينة والمنطقة الصحراوية الموجودة داخل الأسوار والبيوت. ومِن هنا يمكنني القول إنّها ساحة كبيرة يلجأ إليها الرعاة وقبائل البدو لحماية أنفسهم من الغزاة في حالات الغزو. تمتدّ تحصينات هذه المدينة امتدادًا

عموديًّا على طول النّهر، وفي النّهاية، وفي المنطقة التي تتّصل به، ترتفع كهضبة كان مشيدًا فوقها قلعةٌ تسيطر على النهر، كما تسيطر الرأس على الجسد، بمسافة خمسين مترًا.

مرَرْنا بالقرب من قبر عجيب وقديم جدًّا، من الطّوب الطيني المحروق، وعلى واجهة شماليّة وجدنا كتابةً يبدو أنّها مهمّة للغاية، لكنّني مع الأسف لم أتمكّن من معرفة معناها، ولكنّني لاحظت أنّ المسيو سيوفي قنصلنا، الذي يتقن اللغة العربية جدًّا؛ يقدرها كثيرًا، فقد بعث بنسخةٍ منها إلى باريس. أمّا من الجهة الفنية فهذا القبر غريبٌ جدًّا، فيوجد به من جميع أطراف الباب، تحت الكتابة، مقطعان من طابوق طبيعيّ مسبوك، برسوم مذهلة، وخطوط يبلغ عرضُها سنتيمترين، مزخرفة بزمرد الخزف المطلي الأزرق بشفافية كبيرة خالصة تمامًا.

وأثناءَ تجوّلنا في أنحاء البلدة، لاحظنا انتشارَ آثار البثور على وجوه الأهالي، وكأنّها دمامل، وهذا المرضُ منتشرٌ في المراكز الكبيرة في هذه البلدان الحارة، ويُطلقون عليها أسماء الأماكن التي يُصاب فيها الأشخاص مثل: حبّة حلب، أو حبّة ديار بكر، أو الموصل، أو بغداد.

وكنت قد رأيتُ في الجزائر مسامير بيسكرة، ويبدو لي أنّ لها بعض العلاقة مع هذه، وهذه الحبوب أو البثور مجهولةُ الأسباب، تظهر في بادئ الأمر على هيئة نقط حمراءَ صغيرة، ثمّ تكبر تدريجيًّا حتّى تصبحَ في حجم المسمار الصّلب، ثمّ تنفجر وتختفي خلال عام، تاركةً مكانها بقعًا داكنةً سيئةَ المظهر. وقد جاء بعض الأطباء من أوروبّا إلى بغداد لدراسة هذه البثور، ولكنّهم لم يحصلوا على نتائج؛ بل زادوا الأمرَ سوءًا وجعلوها أكثرَ حساسية، وأصبحت البثور أكثر سوءًا.

وقد لاحظت أنّ هذه البثور لا تنتشر سوى في المدن ذات المكانة الكبيرة، فهي موجودةٌ في الموصل، ولكنّها لا تظهر مطلقًا في قرية النبي يونس الصغيرة، رغم أنّها تقعُ في نفس الأحوال الصّعبة التي تتعرّض لها الموصل. حتّى أنّ الأهالي الذين يحافظونَ على نظافتهم يُصابون بها، مثلهم مثلَ الأشخاص الذين يعيشون في قذارة دائمة.

وتنتشرُ هذه الإصابات في خطّ حلب وديار بكر والموصل وبغداد، ولكنها لا تظهرُ في القرى الصغيرة التي تتوسّط هذه المواقع، وأغربُ ما في الأمر هو أنّها تظهر في وجوه أهالي البلد، بينما تظهرُ لدى الأجانب في الأذرع والأيدي، ولكن هذه ليست قاعدةً عامّة، ولا أحد يعرف كيف يُصاب بها الأهالي أو أسبابها.

وقد علمتُ أنّ بعض المسافرين المارّين بهذه البلدان أصيبوا بها رغم أنّهم لم يبقوا بها مدّة طويلة، بينما لم تظهر على الآخرين سوى نقطةٍ حمراء بعد عودتهم إلى بلادهم بعدّة أشهر.

وجميعُ المرسلين (الآباء) تقريبًا مصابون بها، فهي بمثابة الضريبة التي يجب أنْ يدفعوها مقابل رسالتهم، وقد كان أحدُهم يتألّم منها بشدّة فقد أصيب بإحداها في خدّه.

يعرفُ أهالي بغداد نوعيْن منها:

الحبّة الذّكَر التي تأتي وحدها، والحبّة الأخت التي تتكاثر. والنوع الثاني تأتي في حجم أصغر، ولكنّها مؤلمة كالحبّة الذّكَر، وقد سمعت أنّ أحد الأهالي أصيب بثلاثين ًحبّة منها.

وسمعتُ أيضًا أنّ أحد الدومينيكيّين أقام في الموصل لمدّة ستّ سنوات، ولكنّه لم يصَبْ بها، ولكنّه أصيب بها بعد عودته إلى فرنسا بثلاث سنوات، حيث أصيب بحبّة

مُخيفة في صدغه، وكان ذكيًّا لدرجة أنّه لم يحاول إيقاف تطوّرها، حتّى اختفت الحبّة وحدها، فمن المعروف أنّ أيّ محاولة لعلاجها أو إيقاف تطوّرها يزيد الأمر سوءًا، ويترك مكانها آثارًا سيّئةَ المظهر.

طلبْنا من البعض أعدادَ الكلك، وقد كان بعض الآباء قد قاموا بقطع المسافة، فقاموا بتزويدنا من خبرتهم بكلّ ما أمكنهم، وقام نجّار الدير (الجماعة) بتجهيز خيمة صغيرةٍ من الخشب المفروش بالقطن والأقمشة القطنية لنا، وكلّف مدير البيت بشراء لوازمنا.

إنّ الانحدار إلى بغداد يحتاجُ إلى أربعة أو خمسة أيام في شهري آذار أو نيسان، أيْ عندما تكون المياه مرتفعة، وأحيانًا يتطلّب ذلك عشرة أو أحدَ عشَرَ يومًا في هذا الوقت من العام الأكثر جفافًا، ويلزمنا وقتٌ أكبر من مدّة عبور المحيطات للذّهاب من هافر إلى نيويورك.

إلى جانب أنّ النهر يسير في صحراءَ جرداء ولا طعام فيها، إذ يمكننا أن نموتَ جوعًا خلال هذه المدّة إنْ لم نجهز كلّ ما يلزمنا قبل السفر، حتّى أنّ ضفاف النّهر جرداء لدرجة أنّنا لن نجد فيها حطبًا لطهي الطعام.

وللأسفِ الشّديد لم يرجع مسيو سيوفي بعد، حيث كنّا نأمل أن يقدّمنا إلى السّلطات في المدينة؛ ولذا قام الأبُ دفال بإخبار والي المدينة والولاية بأنّنا سنزورها غدًا. عند عودتنا إلى غرفتنا وجدنا أنّ الراهبات الطيبات قمنَ بغسل وترتيب ثيابنا، وهذا أمرٌ لا يقدّر بثمن؛ حيث إنّنا سنجد أمتعتنا فقط في طهران، وفيها احتياطاتنا.

١١ تشرين الأول (أكتوبر):

ذهبْنا لزيارة السّلطات على صهوة فرس، حيث إنّ الذّهاب إليهم على الأقدام دليلٌ على نقص اللّياقة وسببٌ للإحراج. ذهبنا أولًا للوالي العـام للمنطقة،

وهو تحسين باشا المقيمُ خارج المدينة في المبنى الكبير المستخدَم كثكنة، وشاهدنا من هنـــاك مبنى التلغراف.

واجْتزنا المدينة تحتَ حماية القواصين وخادميْن ممسكيْن بجواديْنا أثناء الزيارة.

خرجْنا من المدينة من باب لكش، ورأينا أمامَنا طريقًا طويلًا يبدأ من منطقة المقابر، ويقودُنا حتّى سراي الباشا، وهذا الممشَى مُحاط بصفّين من الأشجار، ولكنّها كلّها إمّا مريضة أو ميتة، وبالقرب من القصر لا يوجد أيّ أثر للنباتات. وهكذا بدأتُ أتساءل لماذا قاموا بزراعة أشجار الكاليبتس والدردار والسنديان رغم أنّها لا تستطيع التكيّف مع مناخِ هذه المنطقة، مع أنّهم إذا زرعوا هذا الممشى بأشجار النخيل كان سيصبح أفضلَ وأنجح بكلّ تأكيد!؟.

عندَ وصولنا إلى بوّابة القصر، خرج رجالُ البريد مستعرضين أسلحتهم احترامًا لنا، كان بعضُهم أمام المدفع، وبعضهم خلفه. تركنا الجواديْن في فناء القصر، وصعدنا إلى الطّابق الأول، حيث قدّم لنا رجلُ بريدٍ آخر استعراض الشرف.

أخذونا إلى صالونٍ صغيرة، حيث يوجد الوالي، مرتديًا بزّة أوروبّية، وهو ذو قامةٍ جيدة، يتكلم الفرنسية.

استقبلنا الوالي بمنتهى الرقيّ والذّوق، أمّا الصّالون فكان يطلّ على الواجهة المطلّة على النهر، وعند النّظر من الشبابيك ذات الحديد ترى منظرًا لطيفًا، إذ ترى الرّيف ونهر دجلة والقرية.

كان حديثُ الباشا كجميع الباشاوات مليئًا بالمجاملات والوعود الكثيرة التي قد لا يتمكّن من تطبيقها، ولكنّه وعدنا بأنْ يعطينا شرطة- جندرمة- لمرافقتنا أثناء السفر.

وقد علمتُ أنّ ضفاف دجلة مليئة باللّصوص الذين يسرقون الأكلاك، وقد سرقوا في الأيّام الأخيرة عدّة أكلات، كذلك لم يكنْ من الآمن أن ندخل النهر دونَ حرّاس. وبعد زيارة دامتْ ربع ساعة، واحتساء العصير والقهوة التي لا بدّ منها، ودّعنا تحسين باشا شاكرينَ له حُسن نواياه.

وخلالَ مغادرتنا مررْنا بنفس الاستعراضات (التّحية) التي مررنا بها عند قدومنا، وغادرنا القصرَ متّجهين إلى حمدي بك والي المدينة.

ويبدو أنّني اعتدتُ على الارْتخاء واللامبالاة الشّرقيّيْن، فقد تركت الخادمين يقودان حصاني، كلّ منهما مُمسكٌ به من جهة. ويقع مسكنُ حمدي بك بجانب القنصلية الفرنسية، وعند وصولنا إليه كان استقبالهم أكثرَ حميميّة، فلم نجد أيّ جندي على الباب، حيث إنّ الوالي في بيته الصغير، مرتديًا قميصًا غيرَ مزرّر، وبنطلونًا من قماشٍ أوروبّي، وكان جالسًا على كرسي ديوان ماسكًا بيده رجلَه المكسوّة بجورب.

وعندَ دخولنا ترك رجلَه ومدّ يدَه لمصافحتنا، ويوجد حوله بعضُ الأوروبّيين، وقد علمت أنّ أحدهم مهندس نمساويّ مكلّفٌ بإدارة طريق الموصل، إلى جانب سكرتيره الذي عاش في باريس عامًا كاملاً، ولا يتذكّر منها سوى حي بريدا، بوليبه وشارع سان ميشيل، ويبدو أنّه حينها لم يركّز حماسه سوى للمدينة الأولى في العالم.

أمّا حمدي بك فرغم أنّه لا يعرف باريس مطلقًا، إلّا أنّه متشوّق جدًّا لزيارتها، لا أعلمُ هل هذا بسبب وصفِنا لها، أم بسبب الحكاية الخياليّة لسكرتيره، كان حمدي بك يتحدّث الفرنسية أفضلَ من رئيسه، وبما أنّ الرسميّات هنا أقلّ، فقد أتيح لنا التحدث بحريّة، وعلمنا أنّ حمدي بك ليس متزوّجًا، وهذا أكبرُ دليل على الانحطاط الكبير هنا.

وخلالَ لحظات قليلة قدّموا لنا القهوة، والسكاير المحلية، وهذه السكاير تحتاج إلى شرح خاص؛ فهي تعوّض عن الشيبوك في الاستقبالات، حيث إنّها أسهل وأكثر راحةٍ من حيث التقديم، لكنّه عملٌ كبير لتركيّ حتّى يتعلّم كيفية لفّها، فنجد أنّ هناك باعةً موجودين في السّوق يصنعون أنابيب ورقيّة مخروطية قليلًا، تباع فارغة، وحتى يتمّ ملؤها في البيوت بتبغٍ جافّ جدًّا، أشبه بالتراب (البودرة)، وهكذا تتكوّن السيكارة.

ولكنّ الأمر المزعجَ في هذه السيكارة هو أنّ التبغ غير ثابت، فتجد أنّ الجزء المشتعل يسقط أحيانًا، فيحرث الأثاث والأفرشة، ولذلك تجدهم يصنعون لكلّ مدخن إناءً جلديًّا صغيرًا يضع فيه الرّماد الذي يسقط منها.

ودّعنا حمدي بك، واتّجهنا إلى قنصل إنجلترا الذي ينتظرنا، لنصل إليه قرابة الظّهر.

وهناكَ قدّم لنا الغداء في ديوانٍ يشبه ديوان الآباء، ثمّ تبادلنا الأحاديثَ عن ندرة السّائحين، فمنذ ستّ سنوات لم يأتِ إنجليزيّ واحد إلى الموصل، ثمّ ننتقل إلى الحديث عن الصّيد، فيخبرني القنصلُ أنّه يحبّ الصّيد كثيرًا، ولكنه للأسف لم يجد هنا رفيقًا جيدًا للصّيد والتنقل في الجبال ومطاردة الخنازير والدببة.

وقد علمت أنّ الدبّ يخاف كثيرًا من السكّان، وغالبًا ما يهجم على الماشية، وهناك الكثيرُ من الحكايات التي تدور حوله، فمثلًا لقد قيل لي إنّه ذات يوم اختطف الدبُّ امرأة، وعندما اختفتْ بحثَ عنها زوجها في كلّ مكان، وعندما تملّكه اليأس بحثَ عنها في كهف الدّب، وعندما وجدها سألها أنْ تخرج إليه، فرفضت المرأة قائلة إنّها وجدت رفيقًا أكثر لطفًا من زوجها!، وقالت: (إنّه يحمل إليّ العسل والثمار، وفي المساء يكون أكثرَ حنانًا، فيلحسُ رجلي، ويحتضنني، ولا يضربني قط).

وعندما سمع زوجُها المدعو/ محمد هذا الكلامَ ثار غضبًا، ولم يتحمّل هذه العلاقة؛ فقتلَ الدبّ، وأعاد زوجته إلى منزله، بل وحصلَ على فراء الدب. عدنا إلى الدّير حوالي السّاعة الثانية، فوجدنا الآباءَ قلقين جدًّا لعدم عودة مسيو سيوفي، الذي ذهبَ إلى سنجار لاستقبال زوجته التي ستصل من دمشق عبر الصحراء، وتدمير (بالميرا)، والدير، وهذا الطريق شاقّ جدًّا، فقد تمرّ أيام عديدة قبل أن يجدوا بئرًا، وأحيانًا تهاجمهم عصابات أعراب.

وقضيْنا فترةَ ما بعد الظّهر في التجوّل خارج المدينة، وكانت الساعة حينها الرّابعة تقريبًا.

كانت ضفافُ النهر مليئة بالعوسج على بُعد كيلومتر أو كيلومترين جنوبي الموصل، ورأينا أعدادًا كبيرة من الدراج، وهذه المساحة بالكامل تغمرها المياه أثناء الفيضانات في فصل الربيع؛ لذا تجد أنّ البطيخ ينمو بها بكثرة خاصّة من الحجم الكبير، إلى جانب القرع، والرّقي، وهذه الثمار تعتبر الغذاءَ الأساسي للأهالي.

أمّا المزارعين الذين يزرعون هذه النّباتات فيخيمون في وسطها لحراستها وحمايتها من السّرقة، ويكونوا مسلّحين، وقد يقْدمونَ على إطلاق النّار على أوّل مَن يقترب منهم دون تردّدٍ أو شعور بالذنب.

أمّا نهرُ دجلة فهو مليء بالأسماك بأنواع مختلفة وممتازة، ويوجد به أيضًا أكبرُ أنواع السّمك حتّى بغداد، ويسمّى سمك طوبيا، ويبلغ حجم هذا السمك مترًا ونصف المتر طولًا، أمّا قطره فيبلغ من ١٢٠ إلى ٣٠ سنتيمترًا.

أمّا بعد اجتياز بغداد فنجدُ سمكَ القرش، لذا فمن الخطورة السباحة في هذه المنطقة دون اتّخاذ الاحتياطات المناسبة. وقد شوهدت بعضُ القروش تصعدُ في نهر الكارون- أحد روافد نهر دجلة-حتى شوستر.

وعلى بُعد بضعة فراسخ من الموصل، وعلى ضفاف دجلة تنبع عيونٌ كبريتية تفوحُ منها رائحة كريهة، وتشوّه مذاق المياه، وقد علمت أنّ هذه العيون تجعل بعض مناطق النّهر صالحةً لشفاء أمراض الدّم الخطرة المنتشرة في بلاد العرب، والذي يحتاج إلى علاج جدّي.

وفي جبال الغرب توجد عدّةُ منابع قارّ ونفط، وأيضًا في جبال سنجار وجبل محلبية في الشرق، لكنها لا تستخدَم جيدًا. استرحنا بضعَ دقائق، ثمّ عدنا من الباب الغربي، وقد رأينا قوافلَ كبيرةً من الجمال تخيّم خارج المدينة، ولا يحرسها سوى رجل واحد، وكانت الجِمال متّكئة على قوائمها الأربعة المطويّة تحتها، وكأنها طيور اللقلق التي تسبح في بحيرة.

وهذه الحيوانات تسيرُ بهدوء، وهي أكبرُ مثالٍ على الصّبر واللطف. ثمّ مررنا بالقرب من قبرٍ حديث العهد، فوجدنا بعضَ النساء يبكين ويتنهّدن مولولات، وعندما تريدُ نساء المتوفّى الاستراحة من هذا العبء، يقمنَ بدفع مبلغ معيّن لعدّادات فيقمنَ بالنّواح على القبر على حسب السّاعات المتّفق عليها، والتي أخذنَ أجرًا عنها، ويقمنَ بذكر صفات المتوفّى الحسنة خلال نحيبهنّ هذا، وهذه التّمثيلية الصغيرة تستمرّ حتّى يوم الجمعة أيًّا كان يومُ الوفاة؛ حيث أنّهم يعتقدون أنّ الله يفتح أبواب السماء للميت يومَ الجمعة، لذا يكون من حُسن حظّهم إنْ توفّي المرءُ يوم الخميس، حتّى أنّهم أحيانًا يقربون وفاة المريض لهذا السبب.

عدْنا إلى الدّير- الجماعة- فوجدنا مؤجّر الجياد الذي جاءنا به المدير، واتفق معه أنْ يقودنا إلى نينوى وخورسباد، وقد حدّدنا موعد السفر في السّاعة السادسة صباحًا، أي الثانية عشرة حسب التوقيت التركي، أي عند شروق الشمس.

١٢ تشرين الأول (أكتوبر):

كانت الجيادُ جاهزةً في الموعد المحدّد، ووضعنا طعامنا في خُرْجين يحملهما حصانُ الدّليل، اجتزنا المدينة التي تكون هادئة في الصّباح الباكر كما هي في النّهار، ثمّ استيقظ السّوق، وفتح الباعة دكاكينهم، ونظّفوا مقاعدهم، وأقبل عليهم بعضُ المشترين.

وأخيرًا وصلنا الجسر، فوجدْناه مزدحمًا جدًّا، حيث إنّه يكون هكذا خاصّة في السّاعات الأولى من النهار؛ لأنّ المدينة تغلق في الليل. كان الازدحام شديدًا لدرجة أنّنا اضطررنا للدّخول والخروج بانتظام وهدوء لتجنّب الاندفاع الذي قد يؤدّي- بكلّ تأكيد- إلى تصادم الحيوانات المحمَّلة بالصناديق الضّخمة.

وفي أعلى الباب يوجد مقهًى كبير، يرتاح فيه روّادٌ هادئون بكسل ولا مبالاة ويدخّنون متفلسفون، ومحتقرون صخبَ الجماهير. أمّا نحن فقد اضطررنا إلى أنْ يمرّ الفوج القادم في الاتّجاه المعاكس، كانت الحيوانات تتبلبل، والجمال ذات النّظرات الثاقبة تحرّكها صرخات الناس، فتدفع الحمير بمجموعها دون أن تراها، ويبدو أنّ الجميع هنا يتدافعون عند عبورهم.

أمّا مَن لا يتمكّن من دفع الرسوم، فيقوم بترك منديل أو عقال أو قميص أو رزمة؛ كرهانٍ له فإنْ لم يعدْ قبل المساء لاسترداده ودفع الضريبة، يُباع هذا الغرض بالمزاد، ويسدّد ما عليه من ضريبة.

وقد أعطانا قنصلُ إنجلترا قواصة بحجّة أنْ يرينا تلّ قوينجق، ولكنه في الحقيقة كان يريد معرفةَ ما نفعله، حيث إنّ الإنجليز ينسبون إلى أنفسهم كلّ الاكتشافات التي تمّت في نينوى، وعلى مجاري دجلة، ولكنّهم رغم قيامهم بأعمال كبيرة بفضل

لايارد ولوفتس، وإخراج بقايا دفينة لمدنٍ مغمورة إلى حيّز النور؛ إلّا أن بوتا الفرنسي، هو حقًّا أوّلُ مَن اكتشفها وأظهرها.

ففي عام ١٨٤٢، وعندما كان بوتا عائدًا من فارس في أحد الأيام، مارًّا بالموصل، وعندما أراه الناس طابوقًا غريبًا، مصدره هضبة واقعة على الضفة الأخرى من دجلة، استثاره الأمر، وطلب من الحكومة الفرنسية أن تخصّص له موقعًا كقنصل فرنسا، ممّا يتيح له العمل في الحفريات، وبالفعل فقد حصل على المنصب، وبدأ العمل في الحفريات، لكنّه لم يحصل على نتائج جيدة.

وعندما عرف سكّانُ قرية خورسباد بأنّ ذلك الشخص الفرنسي يبحث عن الطّابوق، جاءوا إليه بطابوق آخر مدّعين أنّهم يجدون منه كميّاتٍ كبيرةً في حقولهم، فانتقل بوتا إلى هناك، وبالفعل وجدَ في خورسباد آثارًا أشدّ وضوحًا ممّا في قوينجق، وبما أنّه لم يكنْ يمتلك الكثيرَ من المال، فلم يكنْ بوسعه العمل في المنطقتين معًا، فأهملَ تلّ قوينجق، واستمرّ في العمل في الموقع الجديد.

وبما أنّ قرية خورسباد الصّغيرة كانت تقع على تلك الآثار، فقد غيّر بوتا مكانها، وشيّد على نفقته الخاصّة قريةً أخرى في السّهل، التي مازالت موجودة حتّى وقتِنا هذا، وأكمل العملَ في الحفريات. ومن بعده خلفه بلاس، الذي أتمّ هذا العمل بشكل ممتاز.

أمّا خرائبُ قصر سرجون فقد رأتِ النّور بالشكل الأكمل وبالعناية الأتم، بل وأفضل من جميع أطلالِ ما بين النّهرين، حيث كان هذا القصر منفيًّا، وكانت مساحةُ هذه الحفريات حوالي عشرةَ هكتارات. وقد حصلنا على الثّيران المجنحة ذات الرّؤوس البشرية الموجودة حاليًا في متحف اللّوفر من هذا القصر، وهناك أيضًا قطع أخرى عجيبة كانت مخصّصة لمتاحفنا، لكنهم لم يتمكّنوا من إيصالها،

فبعد أن تمّ نقلُها بصعوبة إلى ضفاف دجلة، إلّا أنّ العديد منها غرق في النهر. وقد اكتشف بلاس أيضًا كتلَ حدائد، وبقايا أسلحة، وأنواعًا مختلفة من أدوات وآلات حديدية.

أمّا مدينة نينوى التي نتّجه نحوها الآن، فبالرغم من أنّ جزءًا صغيرًا جدًّا من التلّ قد تمّ تنقيبه بشكل جدّي، كما أنّ هناك الكثير من التلال التي تنتظر أنْ يكشفها أحدُ ويُظهِرها للنور، لتكشف عن بعض أسرار الإمبراطورية العظيمة المختفية، إلّا أنّ الأوامر بهذه الاكتشافات ترفَض بقرارات حكومة لا تبحث عن اكتشاف الثروات لنفسها؛ بل وتمنع الآخرين أيضًا من التّنقيب، فالباب العالي يرفض متابعة هذه الحفريّات، وفي حالة قامَ بمنح هذا الفرمان بمحضِ الصّدفة، فعادة يكون بشرط أنْ يعود أيّ عملٍ فني مكتشف إليه، وكمكافأة عن الأتعاب لا يحصل العلماء والباحثون سوى على خرائط وبعض التّخطيطات والرسوم والصور الفوتوغرافية، لذا تجدهم في معظم الأحيان يملّون ويتركون العمل.

ومع ذلك فإنّ الإنجليز لا يفقدونَ حقوقهم في تلّ نينوى، فقد أقاموا في هذا المكان كوخًا ذا ستّة أقدام مربّعة من التّراب المسحوق، دونَ سقف يضمّ بعض أكوام أدوات وطابوق، ملقاة في إحدى الزّوايا كالنفايات، ويطلقون على هذا الكوخّ بكل فخر (المتحف البريطاني).

وجميعُ هذه المكتشفات لا يوجدُ لها أهميّة كبيرة، من حيث وجهة نظر التاريخ أو من وجهة نظرِ الاكتشافات نفسها، وأعتقد أنّها ستصبح أكثرَ قيمة إذا علم علماؤنا معنى الكتابات العديدة الموجودة عليها بشكل أكيد، حيث إنّ هذه الكتابات تغطي الجدران والمنحوتات.

حتّى أنّ الكتابات التي يعتقدونَ أنّهم قد فهموها مازالت موضعَ جدل، على الرّغم من الكتابات ذات اللّغات الثلاث المكتشفة في وان وبيستون، التي ساعدتهم كثيرًا. ولكنْ هناك العديد من الكتابات الأخرى بأحرف مسماريّة لا تزال غير مفهومة.

وقد كانتِ الغرفُ الدّاخلية لهذه القصور مكسوّة من جميع الأطراف بصفائح مرمريّة منحوتة تمثّل معارك أو مشاهدَ صيد حيوانات وأسماك، وكذلك نهر دجلة بأسماكه، والواحات المليئة بالنخيل، وغالبًا ما يوجد كتابات طويلة على هذه المنْحوتات.

وهناك أيضًا آثارٌ للعنقاء، والأسود، والثيران المجنحة الهائلة، وجميع هذه الآثار يوجد فوقَها حروفٌ منحوتة تبدو أنّها تحكي وقائع تاريخية مهمّة. أمّا الطابوق المشويّ الذي نجده مستخدِمًا للألواح والكتب فيبدو أنّه لا يستخدَم للبناء.

بعد حوالي ساعتين امتطينا جيادَنا، متّجهين نحو خورسباد، متّبعين مجرى غدير صغير، وكان الرّيفُ مزروعًا، وقد علمنا من خلال السّيقان التي تنمو بعد الحصادِ أنّ هذه حقولُ حبوب وحنطة وشعير، وصادفنا أيضًا بعضَ حقول القطن من النّوع الضعيف، وبجوارها حقولُ خشخاش وأفيون. أمّا بيوت الفلاحين فكانت تشبهُ القلاع الصّغيرة، فهي: مربّعة الشكل، عرضُها أربعةُ أمتار، وارتفاعها أربعة أيضًا، جميعُ فتحاته عبارة عن كوًى صغيرة تشبه فرساي لويس الرابع عشر الآشورية، ما عدا فتحة الباب، إنّه مطمور مرّة أخرى، فعند حفري طرفَ ثقب أزلت كميّاتٍ كبيرةً من التّراب كانت تغطي حائطَ طابوق منقوش.

وقد كان الرسمُ متكرّرًا عدّة مرّات، وكأنّه شريط زخرفي، يمثل نفس الموضوع على ثمان طابوقات. وقد قضيت ساعتينِ في الكشف عن هذا الأثر بسكّين صيد،

وكانت الحرارةُ مرتفعة، والهواءُ ضئيلًا في هذه الحفرة، ممّا أتعبني كثيرًا. كلفت أحدَ الفلّاحين بحملِ نتيجة عملي المرهق هذا إلى الموصل، ووعدته بمكافأة كبيرة إذا وصلَ كلّ شيء إليَّ بحالة جيدة.

عاودنا المسيرَ مرّة أخرى، مارّين بالقرب من جبل صغير، وباتجاه الموصل رأينا بدايةَ العمل في بعض الحفريّات التي أظهرت شيئًا طفيفًا من رأس ثور مجنّح ضخم، وقد علمت أنّ هذه الأعمال قد توقّفت بحجّة أنّ هذا الأثر الشبيه للغاية بسوابقه لن يضيف شيئًا جديدًا للعلم.

رغم أنّ الثّيران المجنّحة الضخمة غالبًا ما تحمل في المساحة المستوية، أي في الفراغ الذي بين القدميْن؛ ألواحًا مكسوّة بالكتابات. ومن أعلى الهضبة التي نسير عليها، رأينا في نفس الاتجاه (اتجاه الموصل) هضباتٍ بنفس الشكل والحجم، ومن المحتمل أنّ أيًّا منها يحمل حيوانًا مماثلًا استُخدم فيما مضى كفاصلٍ ميداني أو كمؤشّر للطريق؟

عندَ عودتنا اتّبعنا طريقًا آخر غير الذي سلكناه في قدومنا، ومررْنا بقرية تسمّى بيبو، وشاهدنا مائدةً صغيرة على شكل مثلّث غريب الشّكل، ويبدو أنّه مقطوع من كتلةٍ حجرية واحدة.

والمنضدةُ دائريّة الشّكل، قطرُها ثمانون سنتيمترًا، وسمكُها حوالي ستة سنتيمترات، عليها كتابةٌ مسمارية، أمّا رجلها فهي تمثّل جزءًا لا ينفصل عنها، ذات شكلٍ مخروطي ممتلئ ومثلّث ذي حراشف قليلة الحفر متّجهة إلى الأعلى، تمثل مخالبَ أسد ذي أربعة أصابع، على ارتفاع سنتيمتر من القاعدة.

وقد مرّ وقتٌ طويل على امتطائنا الفرس، حتّى وصلنا رباط التلال التي تغطي أسوارَ نينوى، ثمّ دخلنا الموصل. ولحُسن الحظّ كانت الأطلال محفوظة جيدًا،

بحيث لم يلحقْ بها أيّ أذى تحت التراب الطيني الذي يغطيها ويضمن بقاءها ضدّ تقلبات المناخ.

والمثيرُ في طريقة بناءِ هذه القصور، هو ما يبدو وكأنّه لا وجود للأسس فيها، فقد كانوا يبدؤون البناء برفْع قاعدة عظيمة من الطابوق والحجارة فوق الأرض بارتفاع مترين أو ثلاثة، ثمّ يقام المبنى فوقها.

وقد اتّضح أنّ قاعدة القصر في الحفريات التي اكتشفت في خورسباد أنّها أعلى بكثير؛ حيث كانت تبلُغ - حسب أقوال بلاس - علوّ الأسوار، ووفقًا لقياساته فإنّها تبلغ حوالي ثمانية عشر مترًا. أمّا عرضها من القاعدة فيبلغ أربعة وعشرين مترًا، وهذا يوضّح ما ذكره ديودور الصّقلي حين قال إنّ العديد من العربات كانت تطارد على الواجهة في أعلى الأسوار، فنحن نلاحظ صحّة هذا الأمر هنا.

يجب أنْ تكون الغرف عالية، ومن جميع الأطراف في الداخل نجد ألواحًا من المرمر مثبّتة على طول الجدران المبنيّة من الطابوق المجفّف بالشمس (اللبن).

ونادرًا ما تكون هذه الألواح أعلى من أربعة أمتار، وقد شوهد مثلها في النمرود بعلوّ ثلاثة أمتار فقط. أمّا الأسود والثيران المجنّحة ذات الرؤوس البشرية التي كانت تشكّل مداخل الأبواب فيبلُغ ارتفاعها خمسة أمتار ونيف، ورغم ذلك إلّا أنّها لا تصل إلى سقف الغرف، إذ أنّ الحائط يزيد مترًا آخر، وقد كان القسم الأخير مشيدًا بالطابوق المشوي المنقوش، وهذه النقوش عبارة عن أشكال أو زخارف غنية، وأحيانًا تكون من طابوق بسيط مجفّف في الشمس - أي من اللبن - ومطليّ بطبقة خفيفة من الملاط - البياض - المصبوغ أيضًا، ويمكن ملاحظة هذا الأمر من البياض الساقط الذي حافظ عليه التراب.

وقد ذكر لايارد منذُ فترة طويلة أنّ أسقف الغرف لا يمكن أن تكون من أيّ شيء سوى الأخشاب (مود) كان تنتشر عليها طبقة من تراب مسحوق، وقد تأكّدنا من صحّة هذا الحديث من خلال قلّة عرض الغرف، كما أنّه لم يعثر على بقايا عقد (قبب) في الأنقاض.

أمّا بلاس ومساعده فلاندن، فقد ذكرَا العكس تمامًا، واعتمدوا في رأيهم هذا على أنّ الآشوريين كانوا يستخدمون العقد كثيرًا. كما كانوا يسندون عليها السطوح أي السّقوف، وكانوا يقيمون العقد من التّراب المسحوق المخلوط بالأغصان، وكانوا يجعلون سمكَها كبيرًا حتّى تحميهم جيدًا من الحرارة المرتفعة.

وربّما كان الطابوق المشوي يشكّل القسمَ الداخلي منها، ولكننا لن نستطيع تأكيد هذه النقطة، حيث إنّ ما تبقّى من الجدران لا يصل إلى قاعدة القوس ماعدا في باب خورسباد.

وعندما هجرت هذه القصور، أو خرّبت بالحريق الذي أشعله الغزاة، تهدمت العقد، ومعها جزءٌ من الجدران المشيّدة بالطابوق المشوي القائم فوق القطع المنحوتة، وقد أدّى هذا التهدّم إلى دفن المنحوتات بالكامل، وهذا ما جعلها تصمد حتّى اكتشفت، حيث إنّه كان سيكون من المستحيل الحفاظ عليها هذه الفترة الطويلة لو ظلّت معرّضة للهواء، أو إذا كان تجمّع التراب والرمال قد سبّب لها الدفن بشكل تدريجيّ.

وأعتقدُ أنّ سببَ سُمك السّطح هو ندرة الحجارة، خاصّة لأنّهم في حاجة للحماية من شدّة الحرارة، حيث يبدو أنّ كلّ شيء هنا قد جهّز بحيث يحميهم من قسوةِ هذا المناخ، فنجد أنّ الغرف طويلة ومرتفعة، حتّى أنها تشبه الممرات الكبيرة، بحيث يتلاعب الهواءُ فيها بسهولة، أمّا الجدران فهي سميكة ولا شبابيك فيها،

وأحيانًا يوجد بها فتحاتٌ صغيرة تطلّ على الأفنية كان لها سقفٌ دائري يحمي البرج فهو أشبه بالرواق.

وفي كلّ قصر يوجد فناءٌ كبير رئيسي كانت تتمّ به الاجتماعات والاحتفالات الكبيرة، ويوجد بهذا الفناء القليلُ من المنحوتات التي كانت محميّة في المناسبات الكبيرة بستائر (جوادر) واسعة، حيث يوجد ما يشبه الحيوانات البرونزية مثبتة في الأوتاد، وعلى ظهورها تحمل حلقات، أي أنّها قد صنعت خصيصًا لتعليق الحبال والسّلاسل.

وقد كانت هذه القصور بمثابة معالمَ وطنية يوضع عليها ثقل يوميات الإمبراطورية، كما تمثّل الأعمال المجيدة في أحد المنحوتات. فكان كلّ مَن يدخل القصر يعرف تاريخ الأمّة، حيث كانت المنحوتات توضّح بشكل حيويّ كلَّ التفاصيل المهمّة، وهكذا كان الملوك يشاهدون ما فعله أجدادُهم أمامهم باستمرار، وأيضًا تكريمًا للآلهة.

ويبدو أنّ المدخل الرئيسي لقصر قوينجق كان الجانبُ الشرقي المعاكس للنهر، حيث رأينا به الثّيران الكبيرة التي تحمل يوميّات سنحاريب الذي ينسب إليه قيام هذا البناء العظيم، وهو ابنُ الملك الذي شيّد خورسباد، واسمه موجود على الكتابات التي تعلو الثّيران في القسم الجنوبي الغربي من نمرود، وعلى العديد من كتابات الطابوق، وعلى آثار أخرى من هذه الأطلال، كما في خرائب خورسباد. وقد كان من المعروف أنّ ملك خورسباد يدْعى سرجون قبل أن تثبت قرابته مع نينوى.

أمّا رولنصون فيدّعي بأنّ هذا الملك كان اسمُه أيضًا شلمنصر الذي تعرف عن اليهود في عهده، ويبدو أنّ كتابات خورسباد تساوي ما بين شلمنصر وسرجون.

وفي أيّام الفتح العربي، كان مكانُ خرائب خورسباد يعرف باسم تلّ سرجون. ولأوّل مرّة في اصطخر عام ١٦٠٢، لاحظ بيترو ديلا فالي الأشكالَ المسمارية، ومِن بعده شاردن، لكنّها بقيت غيرَ واضحة حتّى عام ١٨٠٠، وقد أراد هاكر أنْ يرى فيها أشكالًا رمزية، وقد ساعده في تكوين هذا الرأي وجودُ رموز شبيهة بها في الهيروغليفية المصرية.

وفي عام ١٨٠٢ اهتدى كورتفند إلى النّظرية الصحيحة للألفباء، ثمّ جاءت كتابات بيستون التي اكتشفها رولنصون لكي تكملَ هذه التّصريحات وتؤيدها، فقد قدّمت لنا هذه الكتابات ثلاثةَ نصوص وثلاثَ لغات مختلفة جنبًا إلى جنب.

وهناك نوعان من الألفباء المسمارية، وهُما مختلفان تمامًا:

أوّلًا: الألفباء الآشورية المختلطة برموز صوتيّة وتصويرية، وهذا النوع نجده في نينويى، وخورسباد، ونمرود وبابل.

ثانيًا: الألفباء الإيرانية المكتشفة في بيرسيبوليس التي تتكوّن رموزها من عناصرَ شبيهة بالسابقة، ولكنّها لا علاقة لها معها.

ويُمكننا تقسيمُ الألفباء إلى قسمين:

البابلي القديم، والبابلي الآشوري.

وقد وجدنا البابلية القديمة على طابوق وأسطوانات وألواحٍ من أطلال بابل وأطرافها، أمّا البابلية الآشورية فنجدها في كتابات برسيبوليس وبيستون الثلاثية.

أمّا البابلية القديمة على طابوق وأسطوانات وألواحٍ من أطلال بابل وأطرافها، أمّا البابلية الآشورية فنجدها في كتابات برسيبوليس وبيستون الثلاثية.

أمّا البابلية القديمة فهي ذات تنوّع أكثر انغلاقًا، حيث يبدو أنّ مَن كان يستخدمها كان يتعمّد تعقيد الأشكال البسيطة التي كانت للآشوريّين.

وهناك نوعٌ آخر من الكتابة هي الكتابة المائلة أو المقدّسة (الكهنوتية) وهذه الكتابة تستخدم عادةً في الاستعمالات اليومية، مثل المستندات الخاصّة، أو في كتابة الأحداث ذات الأهمّيّة البسيطة، وهذه الكتابات كانت تستخدم على الورق بكلّ تأكيد، أو على قطع جلدية، وكانت تكتب بالقصب.

وهي تشبه كتابةَ الفينيقيّين، والتدميريّين، واليهود، وتكتب من اليمين إلى الشّمال، أي عكس الكتابة المسمارية. وبما أنّ هذه الكتابة ليست ذات أهمية كبيرة كالكتابة المسمارية فسوفَ نستأنف حديثَنا عن الكتابة المسمارية، حيث إنّها أهمّ من الناحية التاريخية.

فقد توصّل كروتفند بعد بحوثٍ كثيرة إلى تحديد المحاور التالية بالنسبة إلى الكتابة المسمارية:

فقد اكتشف أنّ حروف برسيبوليس ليست رموزًا تشرح الأفكار، وإنّما هي حروفٌ ألفبائية، أي أنّها ليست حروفًا مقطعية. وهذه الكتابة تضمّ هنا أربعين إشارة تضمّ أيضًا حروف العلة الطويلة والقصيرة.

ويدعمُ هذا الرأي مقارنة ذلك بلغة الزند، ويجب قراءةُ هذه الكتابة من اليسار إلى اليمين، وهو يؤكّد بأنّ كتابات برسيبوليس مكتوبة بالزندية، وترجع إلى عهد كورش والإسكندر.

وإذا شئنا شرحَ كلّ ما اكتشفه كروتفند عن هذه الكتابة سيطول الأمر كثيرًا، وليس من السّهل اختصاره في كلمات قليلة. فقد افترض كروتفند أولًا أنّ الكتابات التي ترافق أشكالَ الملوك تذكر أسماءهم وألقابهم، فدرسها اسمًا اسمًا، وحرفًا حرفًا،

وقارنَ بين استنتاجاته وبين الأحداث التاريخية، فوجد تسلسلًا مقبولًا في النسب لأسماء الأعلام.

ثمّ افترض بأنّ الأسماء التي تقدّمها الكتابات هي أسماء السلالة الأخمينية، فقارنَ هذه الأسماء- مع العودة للوراء- بالأسماء التي كان هيرودوت قد ذكرها ابتداءً بكورش.

ونتيجةً لأنّ الأسماء الأولى تبدأ بحروفٍ مختلفة رغم أنّها ذات طول واحد، فهي كورش وقمبيز، وكورش وأحشورش، فقد كان التّسلسل ممكنًا، وعندها وجد أنّ الاسم الأوّل للكتابة مكوّنٌ من ثمانية أحرف، وقارنها بالاسم العبري لداريوش أو داريوس.

لم يكنِ اكتشاف (كروتفند) لهذه الكتابة سوى افتراضات، ولكنّها أصبحت أكثرَ رسوخًا عندما أيّدتها أعمال (بورنوف) عام ١٨٣٦.

وقد كان الكولونيل (رولنصون) من البعثة الإنجليزية في فارس يجهل أعمال (بورنوف) في فرنسا، وأعمال (لاسن) في ألمانيا؛ لكنّه اكتشف كتابات بيستون، وتوصّل بأسلوبِ كروتفند نفسه إلى ألفباء مساوية لألفباء (لاسن) مع اختلاف حرف أو حرفين.

حتّى أنّ (بوات) قد لاحظ ستمائة وأربعين حرفًا، كما كانت كتابة حجر بيستون، الذي ساعد الكولونيل رولنصون على اكتشاف نظامه الآشوري، يحتوي على حوالي مائة اسْم علم، كان بوسعه قراءتها في الجهةِ المكتوبة بالمسمارية الفارسية، ممّا جعله يلاحظ تطابقَ رموز عددية، رغم أنّها تحتوي على بعض الاختلافات البسيطة.

أمّا اسمُ الله فكان يرمزُ له بعلامة أو مقطع، فكان يجب على القارئ معرفة أيّ إلهٍ هو المقصود بالرمز، وكذلك أيضًا بشأن اسم سنحاريب.

فنجد أنّ الحروف أو المقطع الأوّل هو الذي يحدّد الإله الذي لا يقدر بأيّ قيمة صوتية، أمّا الحرف الثاني فيشير إلى الإله الآشوري (سين)، وكذلك أيضًا بشأن أسرحدون، وسردنا بال، حيث يمثّل الرّمزان الأوليان ملكَ الآلهة «آشور».

ومِن هنا جاءته فكرةُ المقارنة بين الفرس والميديّين والأسقيطيّين في عهد داريوس، كما هو الحال بين العرب والفرس والأتراك حاليًا، حتّى توصل إلى عقد المقارنة بين اللغات، وعندما تأكّد من أهمّ الكلمات، وجد تشابهًا كبيرًا في الكلام بين العبرية والكلدانية القديمة.

وقد علمت أنّ كتابات خورسباد لم تنحت مطلقًا على الواجهات الخارجية للقصور، بل كانت تنحتُ في الدّاخل على طول الجدران، وعلى أجسام وملابس التّماثيل، وأيضًا بين أقدام الحيوانات. لذا نجد أنّ الأماكن المكتوب عليها محفوظة جيدًا، ولم يمسّها سوء، وكذلك أيضًا بالنسبة لكتابات نينوى، ويبدو أنّ المعماريين الآشوريّين المكلّفين بنقش الكتابات اهتمّوا بالأمر جيدًا حتّى تبقى كتاباتهم فترة طويلة دونَ أن تتأثّر بعوامل الزمن.

أمّا كتابات وان وبيستون فقد تمّ حفرها على أجزاء صخور مستوية متروكة في العراء، بعمق عشرة أو خمسة عشر سنتيمترًا. أمّا في وادي بافيان، فقد صنعت المنحوتات والكتابات على أجزاء من صخور محفورة عميقًا.

وعندما كان المعماريّون يريدون حفظَ الألواح التذكارية التي تحمل اسم الملوك الذين قاموا ببناء المباني؛ كانوا يضعون تلك الألواح تحتَ ملاطات الدهاليز وفي سمك الجدران.

لا يمكنُنا حماية أنفسنا من الشّعور الروحاني الذي اجتاحنا خلال اجتيازنا هذه المدينة التي اكتملتْ فيها جميع أحداث التّاريخ شبه الخيالية في العصور الأولى،

حيث سرعان ما يسرقنا الخيالُ إلى مشاهدَ مختلفة، ويبدو الأهالي الذين يتحركون أمامنا وكأنّهم محافظون على العادات والتقاليد والأساليب التي يتّصف بها شخصيات الكتاب المقدّس.

فلا أعتقدُ أنّ حياة إبراهيم ويعقوب وعبيدهما وقطعانهما كانت تختلفُ عن حياة هؤلاء القوم الموجودين الآن. فعندما أنظر للخروف الكبير ذي الصوف الأبيض المسترسل بخشونة، والعباءة الواسعة المصنوعة من نفس القماش، معقودة فوق الرأس بمجموعة خيوط قطنية متهدّلة على الظهر من أعلى المقطع؛ أتساءل: هل هذه الأشياء تختلف كثيرًا عمّا كانت عليه في الماضي؟، وأجد أنّ هذا الوجود والواقع نفسه كان موجودًا من قبل بكلّ هدوء وبساطة.

وأخيرًا عدْنا إلى الرسالة (الدومينيكيّة) فأخبرونا بأنّ مسيو سيوفي وزوجته قد وصلَا، لكنّنا لم نجد أنّه من اللائق الذهاب لزيارتهم فور وصولهم، فهما متعبان من السّفر بكلّ تأكيد، ويجب ألّا نزعجهما ونتركهما للرّاحة التي اشتاقا لها كثيرًا.

١٣ تشرين الأول (أكتوبر):

خرجْنا في الصّباح الباكر لالتقاط بعض الصّور للموصل، بالرغم من فضول الأشخاص الكثيرين المحيطين بنا، وبمجرّد عودتنا ذهبنا لزيارة مسيو سيوفي الذي استقبلنا بكلّ لطف، كما كنّا نتوقع. وقد علمت أنّ أصل مسيو سيوفي من دمشق، وقد عمل مترجمًا عند الشّيخ عبد القادر لفترة طويلة، كما كان صديقًا له، وهو يتحدّث اللغة العربية بطلاقة، كما أنّه يمتلك مجموعة ميداليات من أغرب ما يكون.

ثمّ ذهبنا لزيارة المطران (المونسينور) بهنام بني، رئيس أساقفة السريان الذي عادَ معنا إلى الآباء (الدير)، وقد كانوا مهتمّين كثيرًا بسفرنا، فأخذوا يتحدثون حول السّفر من الموصل إلى بغداد.

وبعد الظّهر خرجنا برفقة مسيو سيوفي لزيارة جامع عجيب يضمّ رفات السّلطان لؤلؤ. وعند وصولنا وجدنا مدخلَ الجامع وضيعًا، أمّا الباب، فكان برونزي وذا صنع بديع، وقد وضع صانعُه اسمَه بشكل واضح وسط أحد الإطارات، أمّا ضريحُ السّلطان فكان في الداخل، وهو من الخشب المشغول، وعليه غطاء من قماشٍ أخضر، أمّا الجدران فكانت عاديةً ماعدا شريط مرمري بارتفاع مترٍ حول الجدران، وبنفس هذا الارتفاع يوجد شريطٌ آخر من المرمر الأسود، عرضه يتراوح بين عشرين أو خمسة وعشرين سنتيمترًا، منقوش عليه آيات قرآنية مطعّمة بالمرمر الأبيض.

عدْنا إلى القنصلية فإذا بالمسيو سيوفي يعرض عليّ تناول الغداء معه، ويريد إهدائي هديّةً لطيفة عبارة عن كتابِه حول ديانة الصابئة.

إنّ هذه العشيرة، أو هذا المذهب يُعرف في الشرق باسم اليوحانيين، والمعمدانيّين، وحميري سبأ، وخاصّة المندائيين أو مسيحيي مار يوحنا المعمدان، حيث أنّهم يدّعون أنّهم تلاميذ القدّيس يوحنا المعمدان، الذي من القدامى الأوائل. وهُم يقيمون على ضفاف دجلة، بين البصرة والكوت والعمارة، وقد علمت أنّهم تركوا فلسطين بعد أن تمّ طردهم منها.

وهذه الدّيانة عبارة عن خليطٍ غير منسجم من أفكار غنوصية وطقوس مسيحيّة، وهي تختلف عن الدّيانة المسيحية، لأنّها تنسب أقوال المسيح وأفعاله إلى يوحنا المعمدان.

وهذه الدّيانة في حقيقة الأمر عبارة عن خليطٍ من الديانة اليهودية والنظريات المسيحية الكلدانية، وقد أمر محمّد النبي ﷺ بتسامح واحترام كلٍّ من الديانة اليهودية والمسيحية والصابئة.

والصّابئون يحافظون على نظم صارمةٍ في الدين، ويمتنعون عن الختان، ويقبلون بالمعمودية، ولكنْ باسم الله وحده، فهم لا يعترفون بالابن والرّوح القدس.

ويمكنُهم الزّواج في أيّ وقت، ومع أقرب المقرّبين منهم، وهُم يتمّون مراسيم الزّواج على ضفاف النهر الذي يصلونه في احتفال كبير، ويكون الملا (الكاهن) والكنزافرا مرتديًا ثيابه الكهنوتية، ويمسك بيده الخاتم وعصا زيتون، ويقوم بتلاوة الصّلوات المفروضة، ثمّ يقوم بتغطيس العروس في الماء ثلاث مرّات، وفي المرّة الأخيرة تمرّ من بين رجلي خطيبها، وحينها يعلن الكاهن أنّهما أصبحا متّحديْن بشكل كامل وغيرِ قابل للانحلال (الطلاق).

وقد اعتادَ المسلمون أن يذهب الزّوجان إلى الحمّام في اليوم التالي لزواجهما، بينما اعتاد الصابئة أن يذهب جميعُ مَن بالبيت، أي كلّ مَن رقد حيث العريس، وكلّ مَن لمس العريس أو العروس، فعليهم جميعًا أن يذهبوا للنهر ويتطهّروا بالماء، وهذا ما يفعله الصّابئ كلّما اقترب من زوجته. كما أنّ من المحظور لديهم لمس الموتى، لذا لا يقدم الصابئون على غسلهم بأنفسهم، ولا يدفنونهم، وحتّى يوفقوا بين أوامر شريعتهم ومتطلبات واجبهم توصّلوا إلى هذه العادة الكريهة:

فعندما يحين موعدُ وفاة المرء، ويعلمون أنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة، يخلعون ملابسه، ويحمّمونه، ثمّ يلبسونه أفخر ثيابه، ويلفّونه بأفخر شرشفٍ له، ثمّ يضعونه في حفرة القبر وينتظرونه حتّى يموت، ويحيط به أهله وأصدقاؤه الذين يصلّون ويولولون حتّى ينتهي أمره تمامًا، فيغلقون القبر وينسحب كلّ منهم.

ويعتقدُ هؤلاء الأشخاص أنّه يجب أن يمرّ أربعون يومًا حتّى تنتقل روح المتوفّى إلى الله؛ لذا فتجدهم خلالَ هذه الفترة يقيمون المآدب مساءًا وصباحًا في بيت المتوفّى على نيّة الميت، ويشارك في هذه المآدب أقاربه وأصدقاؤه المقرّبون.

أمّا كتابتُهم فهي السّريانية الجليلة، ولغتهم عبارة عن جزءٍ من السريانية المختلطة بكلماتٍ فارسية كما باللغة الكلدانية القديمة. ولن أكثرَ من حديثي عن هذه الطّائفة التي يوجد منها الآن حوالي خمسة وعشرون أو ثلاثون ألف نسمة.

أمّا عن مسيو سيوفي فبالرّغم من أنّه شاميّ الأصل، إلّا أنّه يقوم بأعمال القنصلية الفرنسية على أكمل وجه، وكان الغداء جيدًا بالقدر الكافي رغم أنّه بعيد عن مواردِ بلادنا، لكنّ الخمر لم يكن جيدًا، ويبدو أنّهم لا يعرفون صناعةَ الخمر من العنب الطري؛ لأنّه لا يختمر عندهم، لذا يصنعونَه من الزبيب، وكلّ شخص يصنع لنفسِه الكميّةَ التي تكفي استهلاكه الشخصي.

أثناءَ العشاء استلمتُ البرقية التي استغرقت ثلاثة أيام حتّى وصلت من باريس، وكانت عبارة عن أربعِ كلمات، اثنان منهم غيرُ واضحين، وبما أنّهم كانوا عبارة عن جملتيْن فلم أتمكّن من فهم أيّ شيء، وهذا ما يحدث عادة. وهناك عادة خاصّة في التّلغراف هي دفع الأجرة أو الضّريبة بالعملة الفرنسية، وعليّ أنْ أدفع بحسابِ النابليون، أي ذهب كما يقال.

والموظّفون هنا لم يعرفوا بعدُ الفرنك أو الينّ أو الدولار، فنجدهم يقومونَ بحساباتٍ معقّدة جدًّا لاحتساب القائمة بالقروش، حيث أنّهم لم يروا مطلقًا فرنكات فضيّة، ولا يقبلونها بدلًا عن النابليون، ولا أعلم لمَ لا تستخدم تركيا عملتَها الخاصّة؟!.

١٤ تشرين الأول (أكتوبر):

قضيْنا فترة الصّباح بالحديث مع الآباء الذين تقبّلوا عدّة زيارات من بينها زيارة المطران (المونسينور) بهنام بني، الذي أرسل لنا أربعَ بطّات جيّدات لنضعهما إلى

جانبِ مجموعة الدجاج التي نحملها في قفصٍ خشبيّ بمجرّد أن علم بسفرنا. ثمّ جاء مسيو سيوفي يدعونا للغداء في القنصلية بصحبة الأب دفال.

وهناك تحدّثنا عن سفر زوجته من دمشق إلى هنا، وقد كانت برفقة أخيها مسيو دومينيك، وأخبرنا أنّ الطريق عبر الصّحراء طويل وخطر، والحماية ضرورية جدًّا، كما أنّ الماء نادرٌ جدًّا في السّهول المترامية الأطراف من بادية الشام، حتّى أنه من المُمكن ألّا يصادف المرءُ الماءَ لمدّة يومين أو ثلاثة أيام.

لكنْ هذا الطريق ذو أهميّة كبيرة، حيث يمرّ المرء به بتدمر، قرب أطلال بالمير، ومن السّهل معرفة سبب اختفاء هذا الماء بالتدريج، حيث أنّ المؤلفين القدامى كانوا يفتخرون بمياه تدمُر الجارية وحدائقها ورياضها، أمّا الآن فقد اختفت السّواقي والبساتين والمدنية، وفي حياض الهيكل العظيم، هيكل الشّمس ذي الأعمدة الألف، لم يبقَ سوى مجموعة وبضعةِ بيوت، وفي وسط تلك الخرابات يوجد منزل حقيرٌ ليحمي نفسَه من البدو، وهذا هو كلّ ما تبقّى من عظمة مدينة زنوبيا (الزباء). والبلد جافّ جدًّا، لدرجة أنّه على الذين يبغون الوصول إلى الدير (دير الزور) الواقع على الفرات أن يتّخذوا احتياطاتهم من الماء من آبار تدمر الفقيرة، ويعتبر الدير مكانًا عسكريًّا تركيًّا.

والمدينةُ كبيرة بعضَ الشيء، ويزرع بها القطن والأرز، ويبعد الدير عن سنجار مسيرةَ يوم من الموصل، وقد اتّجه مسيو سيوفي إلى هناك لمقابلة زوجته.

وهذا هو الطريقُ الذي يتّخذه المتّجهون من الموصل إلى ميناء بيروت، أمّا للوصول إلى أوروبا فيتمّ الإبحار عادة من ميناء الإسكندرية لاجتياز برية ديار بكر وأورفة، حيث توجد هناك بحيرةٌ اصطناعية جميلة تسمّى عين إبراهيم، ويقال بأنّ إبراهيم أثناءَ عودته من إحدى الغزوات، ولم يكن يعلم ما يصنعه لجنوده،

فطلب من الله أن يتصرّف كما يريد، فحوّلهم الله إلى أسماك (شبابيط)، وصنع لهم هذه البحيرة ليكونوا فيها.

بعد الغذاء خرجنا مع السيد (مسيو) دومينيك للتجوّل في الأسواق، وكان الباعة يعملون أمامَ حوانيتهم الصّغيرة المظلمة، منتظرينَ الزّبائن وسط صخب المارة، ويعملون بصبر، وكان أحدُهم يطرّز الأقمشة، والثاني يثقب عيدان الغلايين، والثالث يشعلُ الموقد لكي يعمل في الجلد بالمساء. وكان هذا الحيّ مكتظًّا بالإسكافيّين والخفافين، الذين يصنعون الأحذية الحمراء جميعًا.

وفي مكانٍ آخر، وجدنا سوقَ الأواني الفخارية والطينية، ثمّ مررنا على باعة الأقمشة، وقد كان معظمها أوروبّية، أمّا القصابون فكانوا في حيّ آخر، مليء بكمّيات كبيرة من الذّباب لدرجة أنّ اللحم يبدو كأنّه مغطى ببقع سوداء ضخمة، وبالابتعاد عن حيّ القصابين نجد الصاغة في شارع آخر، ونجد الصّائغين منحنينَ فوق أفرانهم الصغيرة ينفخون فيها، ويطرقون صفائح الذّهب والفضة.

وبعدَ مسيرة قصيرة وصلنا إلى منزل التّاجر عبد الله شكر، الذي سيدفع لنا بوليصة (كمبيالة) ألف فرنك حتّى بغداد، بضمان من مسيو سيوفي. وقد أخذ هذا المصرفي المحترم خمسة، ثمّ دفع ليرات تركية، وروبيّات هندية تقبل هنا، إلى جانب عملةٍ أخرى غريبة تحمل صورة الأمّ تيريزا، وتقدر بقيمة خمسة فرنكات تقريبًا، وهذه العملة نافذة في أوروبا، ومازالت تستعمَل في حوض البحر المتوسط، بدءًا من مدغشقر، وزنجبار، وزنزيبار، وسواحل مصر، وجزيرة العرب، وبغداد وصولًا إلى الموصل، حتّى أنّهم مازالوا يصكّونها في النمسا حتّى تستعمل هنا.

وعندَ عودتنا للدير علمت بأنّ هناك بريدًا سيسافر إلى بغداد في اليوم التالي عن طريق البرّ، وسيصل قبلنا، فبعثتُ معه رسالة إلى قنصلنا مسيو دي سارزيك،

وأقول فيها بأنّه إنْ علم بوصولنا من قبل المونسينور ألتماير ورسائل أحد أصدقائي من باريس، لأنّه من معارفه.

حيث إنّني لم أكن أريده أنْ يفاجأ بوصولنا كما حدث هنا مع الآباء الدّومينيكيّين، كما رجوته أيضًا أن يمنح ثقتَه لمراسل المصرفي إذا جاءه وسأله عن إمكانية الدّفع من قبلنا، وبما أنّني لم أردْ أنْ أكون متطفّلًا، وأطلب منه أن يستضيفنا، فقدْ رجوتُه أن يؤجّر لنا بيتًا لنقيم به فور وصولنا.

١٥ تشرين الأول (أكتوبر):

بمجرّد استيقاظنا ذهبنا لمعاينة الكلك، وتأكّدنا أنّ نجار الآباء الدومينيكيّين قد أنجز المأوى الصّغير الذي أردنا صنعه. ثمّ عدنا إلى الدير، وتابعنا تجهيز لوازمنا، والاستعداد للسفر. كان كلّ شيء متوفرًا في الكلك من: فواكه، وخضروات، وفحم وأفران، وأقفاص بط ودجاج، وخبز، وأرز، وتبغ، ومصابيح، وشموع، وخراطيش... إلخ.

لكنّنا مازلنا بحاجةٍ إلى بعض الأشياء الصّغيرة، كما أنّ بناء القارب لم يكتمل بعد، لدرجة أنّني بدأتُ أعتقد أنّنا لن نتمكّن من المغادرة مساء اليوم، وازداد قلقي لأن الغدَ هو يوم الجمعة، والمسلمون لن يسمحوا لنا ببدْء رحلتنا في يومهم المقدّس مثل يوم الأحد عندنا.

ولكنّ المسيو سيوفي أكّد لي بأنّ الجندرمة- الشرطة- دقيقون في مواعيدهم، أمّا الأب دفال فقد حجز لنا رجليْن يجدّفان ليقودا القارب، بحيث يجعلانه في وسط النّهر باستمرار، ومع اندفاع المجرى، إنّهما الكلاكان. جمعت ما استطعت جمعه من أغراضِ المجاميع من جماجم وألبسة وأدوات منزلية، آملًا أن أتمكّن من إرسالها إلى متاحفنا من بغداد، أمّا بالنسبة لأغراضنا الشّخصية فسوف نجمعها وقت الرحيل.

بعدَ الغداء ونحن داخلون، جاء بعضُ الأشخاص لزيارتنا وتوديعنا، من بينهم السّيد شيستر، وهو مهندس بافاري جاء إلى الموصل لبناء الطريق. إنّ هذا المسكين هنا منذ سبعة أو ثمانية أشهر، وقد كان في بادئ الأمر رجلًا شغوفًا وذا ضمير حيّ، فكان يرسل برقياتٍ ورسائلَ إلى القسطنطينية ليبعثوا له احتياجاته لبناء الطّريق، لكنّه لم يتلقّ أيّ جواب، وعندها نصحه أحدُ الأصدقاء قائلًا إنّه إذا استمرّ في إزعاج الحكومة سوف يستبدلونه، فقال له بالتحديد: «إنّك لست هنا إلّا للعرض على مرتبك وتترك الحكومة بسلام، إنّ الموظفين قد استبعدوا الأعمال التي تفكّر القيام بها». ومنذ هذا الوقت لم يتجرّأ هذا الرجل على التفوّه بأيّ مِن هذا.

بعدَ ذلك ذهبنا إلى القنصلية للمرّة الأخيرة، لتقديم احتراماتنا للمسيو سيوفي شاكرين قنصلَنا الكريم، ثمّ عدْنا إلى مسكننا في السّاعة الخامسة مساءً، وكان كلّ شيء جاهزًا تقريبًا، ونحن نحتاج إلى عشرين حمّالًا لحمل معدّاتنا وصناديقنا وأمتعتنا إلى القارب.

وكان قواص القنصلية وقواص الدير- الجماعة الرهبانية- يفتحان الطريق أمام خدمِنا، أمّا الجندرمة- الشرطة- فكانوا يسهرون على القطيع الغريب من الحمّالين بأمتعتِنا الغربية والمتنوعة. رافقنا اثنان من الآباء الدومينيكيّين إلى القارب، وقد استغرقنا حوالي عشرين دقيقة لاجتياز المدينة والوصول إلى النهر، حيث يوجد القارب.

وفي أعلى الخيمة كان العلمُ الفرنسي الصّغير يرفرف، ويجب علينا تنظيم الأمتعة، ووضع كلّ منها في مكانها؛ لأنّ المساحة ليست كبيرة، وتركنا الضفة في السّاعة السادسة مساءً.

الفصلُ الرّابع

مِن الموصل إلى بغداد

محتوياتُ هذا الفصل:

الكلك، وضعه، الطريقُ البري من الموصل إلى بغداد، عيون نفط (قار)، حمّام علي (حمّام العليل)، نمرود، التّنقيبات، القصور المطمورة، حلاقة الرجال، برودة اللّيالي، عبور شلال، ترجماننا الجديد، مصبّ الزاب الكبير، جنود طهاة، هجوم ليلي، قلعة الشرقاط، عودة- حملة- العشرة آلاف، حقول على ضفاف دجلة، كيف تحفظ الغلات، جبل حميرين، زورق بخاري فاشل، تكريت، سعر خروف، أمام- دور- الدّوار-، سامراء، القفة، قوافل (كروانات) فارسية، أشجار النخيل الأولى، تلّ محاسي، سنديا، حويش، البساتين، الكاظمية (كاظمين)، الوصول إلى بغداد.

من ١٥ إلى ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)

سيرُ القارب بطيء، ولا يحركنا سوى التّيار، ومجرى المياه ضعيف جدًّا، حتّى أنّ هناك ريحًا خفيفة معاكسة، تتركّز على الخيمة، وتؤخّر سيْرنا. والمجدافان بالكاد يتمكّنان من السّيطرة على مسار القارب، ولكنّهم لا يستطيعون تسريعه، بحيث يكون من الصّعب أن نقطع كيلو مترًا خلال ساعة واحدة.

وقد خيّم الليل علينا سريعًا، ولا يساعدنا على مواصلة السير سوى ضوء القمر الخافت، وبما أنّنا لن نستطيع مواصلةَ السّير خلال الليل بسبب الأخطار المتمثلة في الصّخور الموجودة تحتَ الماء في قاع النّهر، إلى جانب التيارات والأمواج السريعة، لذا نضطرّ للتوقّف على حافّة النهر بانتظار شروق الشمس، وقد كنت أريد التخييم بعيدًا عن أماكن المدينة غير الآمنة، ولكنّنا حينها سنضطرّ للخوف من هجوم الأعراب المفاجئ علينا.

وقد كان الكلك يتكوّن من مستطيل ذي ثمانية أمتار وعشرين سنتيمترًا طولًا، أمّا عرضُه فهو خمسة أمتار وأربعون سنتيمترًا، وهو عبارة عن قسميْن منفصلين بجذوع أشجار مشقوقةٍ إلى شقّين، ومربوطة بحبال وأغصان. وتحته توجد مائة وخمسون قربةً منفوخة ومشدودةً بنفس الطريقة، وهذه القرب هي التي تجعل الكلك يطفو فوقَ سطح الماء.

وفي وسطِ القارب نُصبت الخيمة، وقد وصّينا النجّار أن يصنعها مكوّنة من ثلاثةِ أمتار وعشرين سنتيمترًا طولًا، ومترين وخمسة وأربعين سنتيمترًا عرضًا، وهي عبارةٌ عن لوحٍ خشبي منحوتٍ بشكل بسيط، تمتدّ فوقه لبادات في الأسفل، وفي الأعلى قماش.

أمّا القسمُ الأعلى منها فتجدُه مكوّنًا من أطر- ملابن- يمكننا فتحها لتسمح بدخولِ الهواء. أمّا الباب فهو موجودٌ في الجهة المعاكسة للرّقعة المخصّصة للناس. ووضعنا داخل الخيمة منضدة، وحولها أسرّة المخيم، ووضعنا الأمتعة حولنا، فيما عدا الصناديق التي رتّبناها خارج الخيمة.

كان رجالُنا خارج الخيمة والرّجلان المجدّفان جالسيْن على الأكياس، أمّا الجنود المخصّصون لحراستنا فقد قضوا وقتَهم في الأحلام والتّدخين، أي كما يقال هنا (على كيفهم).

وبالقرب منهم يوجد الفرن في الزّاوية اليسرى، وهو عبارةٌ عن صندوق حديدي، عرضُه وعمقه عشرون سنتيمترًا، أمّا طوله فيبلغ أربعين سنتيمترًا، وقاعُه غير مثقوب لتجنّب إضرام النّار في الكلك أو إحراق القرب. أمّا المجاديف فليست سوى عصا طويلة مستقيمة، كقطعةِ خشب أفقيّة مصنوعة نحيفة في الطرف الذي يمسك باليد، أمّا الطرفُ الآخر الذي يستخدمُ كألواحِ لضرب المياه، فهو عبارة عن قطع خشب طولها عشرون سنتيمترًا، مقسومة إلى نصفين، وموضوعة بشكل معاكس بطول مترٍ تقريبًا.

كنّا قد تركنا في الموصل مترجَمنا القديم سيمون، وقد جاء لتوديعنا حتّى القارب، وقد كان عليه أنْ يذهب إلى وان مع أوّلِ قافلة تتوجّه إلى هناك.

لذا فقد استبدلناه بعاملٍ في مطبعة الدومينيكيّين، وقد كان والده في بغداد، لذا كان يرغبُ في رؤية مؤلّفٍ هذه اليوميات أكثرَ من رغبته في أنْ يجد عملًا، وكان يتوقّع أنْ يجني من مهنةِ المترجم مبلغًا جيدًا لأنّه يعرف الفرنسية، وهذا المترجم اسمُه بطرس.

كما ذكرت من قبلُ أنّنا لن نستطيع التقدّم في الظّلام؛ لذا توقّفنا على حافة النّهر، وقد انتفعنا من صخرةٍ كبيرة للإرساء فشددنا عليها حبل قنب، وقد تركت أمر نوبات الحراسة للشّرطة ليتصرفوا كما يشاءون، ولكنّني وفرت لهم التبغ، والأرز، والرقي، ممّا جعلهم يسعدون بهذه المفاجأة، وبعد تناول العشاء دخلنا خيمتنا لقضاء الليلة.

إنّ طريق دجلة خطرٌ جدًّا للمسافرين، حيث يتّخذه الأعراب وقطاع الطرق ملجأ لهم، فيتوفّر لديهم الماء، والطرائد أيضًا، ولا يتبقى سوى القوارب التي تغفل عنهم ولا تتّخذ احتياطاتها.

فنجدُ أنّ الأعراب يتسلّلون بخفّة في النّهر، ويشقّون القرب لإغراق القارب وسرقة ما عليه.

ولسوءِ الحظّ أنّ الطّريق البريّ من الموصل إلى بغداد ليس بأفضل من ذلك، فرغمَ أنّه بعيدٌ عن النهر الذي يكتظّ بقبائل البدو المتهورة، ورغم اقترابه من نهايات جبال كردستان؛ إلّا أنّه غالبًا ما يقطع من الغدران المائية التي يغذيها الثلج المنْصهر، ممّا يؤدّي إلى تأخّر القوافل عدّة أيّام، فيصبح أكثرَ خطورة من الطريق الآخر بفضل إهمال الحكومة التركيّة، كما أنّ معظم القرى التي كانت تقدّم الطعام والمأوى للقوافل المارّة بها؛ أصبحت الآن مهجورة.

وهناك قانونٌ تركيّ قديم تحترمه معظمُ العشائر التترية، يفيد بأن الحكومة المحليّة هي المسئولة عن السّرقات المسلّحة التي ترتكب في طرق المواصلات الواقعة تحت إدارتها.

ولكنّ هذه المسئولية قد ألغيت، فلم تعدِ الحكومة التركية تدفع تعويضات لِمَن يتمّ سرقتهم سواء كانوا مسافرين أو تجّارًا محليّين؛ لذا فلا فائدة من اللجوء إلى

الحكومةِ عند التعرّض لحادث من هذا النّوع أو للمحكمة ضدّ القبائل البدوية التي تتحدّى السّلطان، حتّى أنّها أحياناً تكون بالاتفاق مع الحاكم والوالي.

إنّ طريق الصّحراء ليس أطولَ أو أفضل بكثير، رغم أنّه ليكون أكثر أمانًا فقط وضعُ سيطرة جنودٍ عبر النهر، وشقّ طريق خشن للعربات، وتشجيع بسيط لقبائل الفلاحين التي تأتي لتسكن في الضّفاف، وهذا هو الضمان الأقلّ توفيرًا. ولكنّ الإرادة السّيئة للباب العالي، وموقفه العدائي ضدّ أيّ محاولة للتقدم؛ يحبط الشركات الأجنبية ويمنعُها من إنشاء خطّ سكة حديد يمتدّ بسرعة إلى الهند. والخليج الذي يضمن أمان القوارب بشكلٍ كبير، كما أنّ الخطّ الحديدي سيسهّل كثيرًا الطريق من البصرة إلى بغداد والموصل، وحلب، والإسكندرونة.

وقد حاولتْ بعضُ القوارب البخارية صعودَ نهر الفرات، إلّا أنّها فشلت ولم تستكمل مسيرتها.

الجمعة ١٦ تشرين الأول (أكتوبر):

أشرقت الشمسُ السّاعة السادسة، ففرحنا كثيرًا؛ حيث إنّ الليل كان باردًا للغاية، لدرجةِ أنّنا ارتدينا معاطفنا، وقد انخفضَ المحرار في الصّباح حتّى درجة ٤ فوق الصّفر، بينما تخطى الثلاثين درجةً خلال النهار.

وعلى امتدادِ نهر دجلة في بلاد ما بين النهرين، تجد عيونَ نفط (قار) تنبع على طول ضفافه، في أماكن عديدة. ومعظمُ هذه العيون كبريتية، وبعضها يساعد في شفاء العديدِ من الأمراض، وفي السّاعة التاسعة وصلنا قريةً تسمّى حمّام العليل (حمّام علي)، وهي قرية صغيرة سمّيت بهذا الاسم بسبب عيونها.

وقد توقّفنا لزيارتها، وخلال هذا الوقت كان يوفان يقوم بذبح ما في قفص الدّجاج.

كانت هذه القرية متهدّمة، وتتكوّن من بضعة شوارع، بيوتُها متهدّمة، ودون أسقف، وليست سوى جدرانٍ حجريّة مرصوفة دونَ بياض، يأتي المرضى لهذه البلدة في الموسم المعتاد لتلقّي العلاج في عيونها. وصلنا إلى العين التي تنبع من صخرة، وتقطرُ نقطةً نقطة في حوض أسودَ، فيه انعكاسات مشعّة ذات منظر مقزّز.

ووجدنا بعضَ المرضى التّعساء يستحمّون بها، من بينهم رجلٌ مخيف جدًّا، وهو مريضٌ بداء الخنازير بدرجةٍ كبيرة ومتطوّرة، وجسده ليس سوى هيكل عظمي مغطّى بجلدٍ تتكاثر به الآكلة، أمّا رجلاه ويداه فلم يعدْ لهما أيّ شكل، نصحنا أفراد الشّرطة المرافقين لنا بتحسّس المياه لمعرفة مدى دفئها، لكنّنا أبيْنا بالطّبع بعد هذا المنظر المقزّز الذي رأيناه.

وخلالَ سيْرنا لاحظنا تلًّا صغيرًا إلى اليمين، يبدو أنّهم بدءوا فيه ببعض الحفريّات، ولكنّنا لم نجد أيّ أثر لبقايا مبانٍ.

عدْنا إلى القارب بسرعة، وقد وجد أفراد الشرطة صعوبةً بالغة في منع بعض الأشخاص صعود القارب. إنّ ضفاف دجلة مستوية ومملّة، كأنّها صحراء خاوية، وأحيانًا نرى بعضَ التلال على يميننا ويسارنا، تشبه التلال التي تغطي نينوى وخورسباد.

عندَ عودتنا إلى القارب استلقينا في الخيمةِ على أسرّتنا، ودخلنا تاركين أرواحنا تسبحُ في استرخاءٍ جميل، وقد ساعد مجرى النّهر على الاستمتاع بهذا الاسترخاء. بعد ساعة تقريبًا وصلْنا إلى قرية صغيرة، سنتمكّن منها للوصول إلى النمرود، وإلى الأطلال الشّهيرة لقصر سردانا بال.

تركْنا يوفان في القارب برفقةِ الجنود والكلاكين، واتّجهت إلى القرية برفقة هاملن وبطرس وأحدِ أفراد الشرطة، وقد بدا أنّ أسلحتنا الواضحة للعيان تبعث في قلوبهم الخوف؛ حيث يبدو أنّهم ليسوا مستعدّين جيدًا لمقابلتنا.

ولكنّني طلبت منهم أنْ يعيرونا بعضَ جيادهم لتوصلنا إلى النمرود، والمسافة مِن هنا إلى هناك قصيرة، إذ تبلغ حوالي ألفًا أو ألفًا وخمسمائة مترًا، ولكنّ الحرارة مرتفعة بشكل مُحرق.

وكما ذكرتُ من قبل أنّ نهر دجلة أكثرُ الأنهار تقلبًا، فقد غيّر مجراه عدّة مرّات خلال كيلو مترين أو ثلاثة، ففي الفترة التي كان فيها ذلك القصر مأهولًا، كان النّهر يجري تحت أقدام الهضبة التي تخفيها الأطلال.

تجوّلنا حول هضاب التّراب الذي يغطي تنقيبات الحفريّات السّابقة المهملة، بدأنا من الهضبة الكبرى الواقعة في الشّمال الغربي التي يفترض أنّها تضمّ قبر سردانابال.

رأينا في الدّهاليز والمقاطع التي تحدّها من جهة أو من أخرى جدران صخرية ذات سمكٍ غير اعتيادي، ومحفور من مسافةٍ إلى أخرى، بما يشبه مداخل مجازات قد بوشر بفتحها، ولكن لم يسبق أنْ زارها أو اكتشفها أحدٌ من قبل.

ومن فوق هذه الهضبة المرتفعة يُمكننا رؤية جميع الخرائب هنا، كما أنّها تشغل مساحة تقرب من الستمائة والخمسين مترًا طولًا، من الشمال إلى الجنوب، أمّا من العرض فتشغل ثلاثمائة وخمسينَ مترًا من الشرق إلى الغرب، كما كان مقام فوقها أرضية من الطابوق والتراب، ومحاطة ببناء صلب.

ويمكننا تمييز بقايا تسعةِ أبواب مختلفة، أمّا تحت أقدام الناووس فيقوم هيكلان مخصّصان للآلهة الآشورية. تركنا ذلك الناووس واتّجهنا نحو الغرب، ثمّ اجتزنا واديًا عميقًا، يبدو أنّه مكان سلّم، أو مجرّد طبقة منحنية تقود إلى النهر، ثمّ صادفنا أطلال القصر الرئيسي الذي كان مرتفعًا عن نهر دجلة بأرضية تشبه السطح، أمّا مدخله فقد كان بجوار الناووس كما يذكر لايارد، أي باتّجاه الشمال، وقد كان هذا المدخل مزيّنًا فيما مضى بالعنقاء وبالثّيران الضّخمة المجنحة، أي كما في قوينجق،

لكنها تهدّمت كما تهدّمت بعضُ الآثار المدهشة، وقد استطاعوا نقل بعض البقايا إلى لندن.

إنّ الخراب هنا يمثّل طابعًا مميزًا، حيث إنّ الحجارة المطروقة تسحق ثمّ تتفتت ذرّات صغيرة، وكأنّها تعرّضت للنّار ثمّ إلى الماء، أو هكذا تبدو للعيان، كما يبدو التّأثير شديدًا في بعض الأماكن، إذ أنّ المعالم البارزة فقط هي الواضحة فيها.

ووجدْنا في حقل الحجارة ثقوبًا، كانت تدخل بها قضبان الحديد، وفي الزوايا وجدنا آثارَ الكلاليب التي كانت معلّقة بها، كما لاحظنا عدّة مرّات أنّ أطراف الزوايا اليمنى مغلقة بحجرٍ منحوت ومثلّث الزوايا، كما تبدو العديد من المنحوتات قد كسرتْ عن عمْد.

وبالطّبع، لم تكنْ هذه الفعلة من أفعال البرابرة، فهُم لن يقدموا على هذا التصرّف الهمجي؛ وإنّما هم الإنجليز، فعندما يقومونَ بالتّنقيب ينقلونَ كلّ ما يستطيعون نقله إلى بلادهم، أمّا الذي لا يتمكّنونَ من نقله فيقومونَ بسحقه هكذا حتّى لا ينتفع الآخرون منه.

وذلك لا يبعدُ عنهم، فهم لا يفقهون القطعَ الفنّية، ولا يعلمون ثمنها، أمّا رغبتهم في ملء المتاحف بها ما هي إلّا محاولةٌ للتقليد والتعالي.

استمررنا بالمسير في نفس الاتّجاه، حتّى وجدنا منحدرًا آخر يشبه السابق، ممّا يشيرُ إلى حافّات السطح، كما يوجد أثرٌ لسلّم آخر، ولطابق منخفض، حتّى وصلنا إلى الزّاوية الغربية، حيث يرتفع قصرُ أسرحدون. ولكنّنا وجدناه قد أتلف تمامًا بسبب النّار، حتّى أصبح من الصّعب جدًّا إيجاد الخطوط العريضة له، أو تركيب خارطته.

وقد كان هذا القصرُ أقلّ ارتفاعًا من قصر حفيده الواقع في الزاوية الجنوبية الشّرقية، إذ أنّ الأطلال أقلّ مرئية، وكان مفصولًا بمنحدر آخر، أي بطبقة منخفضة، وسلّم أكبر عرضًا من الآخر، لذا فهو يعتبر المدخل الرئيسي للأرضية العامة.

بجوار هذا المدخل، ووسط الأرضية، توجد بعضُ أطلال مبنى ينسب إلى تغلتبلاسر، وقد تمّ هدمها- حسب أقوال لايارد- من قبل أسرحدون، حتّى يستخدم موادّها لبناء قصره.

ولا يوجد أيّ أثر للتّحصينات أو للأسوار من الجهتين الشمالية والشرقية، ويبدو أنّه لم يكنْ للواجهة الشرقية سوى مدخلٍ وواحد فقط، كما كانت المباني غيرَ محصنة من هذه الجهة.

ثمّ وجدنا حوالي خمسين برجًا في الواجهة الشمالية، في تحصينات التراب التي كانت بمثابة سور الحماية لمدينة نمرود، ووجدنا مثلها أيضًا في الواجهة الشرقية، لكنّها أقلّ وضوحًا هنا.

أمّا في الواجهة الجنوبية، فقد اختفى أثرُ التّحصينات تقريبًا، وليس من المحتمل أنْ يكون نهر دجلة قد أغرقها، حيث إنّ مستوى النطاق أعلى من حوض النهر، وربّما تكون الحفرة العميقة المملوءة بالماء كانت تستخدم للدفاع.

عدْنا إلى الهضبة الرئيسية حيث يوجد ضريح سردانابال، وبينما كنّا نتجوّل في أنحاء المعبد الصّغير الواقع تحت النّهايات الشرقية من الهضبة، حدث انهيار أرضي كشفَ لنا عن حجر بدا لنا غريبَ الشّكل، فقد كان طوله سبعين سنتيمترًا، وعرضه خمسون سنتيمترًا، ومنقوش عليه مخطّط مذبح مثلّث الأقدام، وبه شكل يعلوه رسم أحدِ الآلهة، وفي كلّ جهة شخصان، يبدو أنّهما كاهنان يمسكان بسمكة، وفي الأسفل أربعة أو خمسة أسطر مكتوبة بالحروف المسمارية.

ويبلغ سُمك هذا الحجر حوالي ثمانية سنتيمترًا، بدون حساب الأشكال المنحوتة، كما أنّ الحجر أملس، والمنحوتات واضحة جدًّا، وعندما قلبنا الحجر، وجدنا وجهه الآخرَ منحوتًا أيضًا. وكان السّطر الأوّل مكوّنًا من زخرفة بيضاوية الشكل، فيها أحرفٌ سحرية محفورة بشكل مقعّر، وتحتها سطرٌ يمثّل أشخاصًا، وحوالي عشرة أسطرٍ مكتوبة بأحرف أدقّ ممّا هي على الوجه الآخر.

استغرقنا مدّة ساعة في تنظيف هذا الحجر، وقد منعني رئيسُ القرية من أخذه في بادئ الأمر، ولكنّه غيّر موقفَه على الفور بمجرّد أن أعطيته بعض الهدايا، حتّى أنّه قال بها أنّني لم أسئ إلى محمد r، فهو مستعدّ لمنحي كلّ ما أحتاج.

وقد كان نقلُ هذا الحجر والإبحار به أمرًا شاقًّا جدًّا، فقد احتجنا إلى محمل يحملُه بمشقّة عشرة رجال حتّى يصل إلى القارب، وقد كنّا نرى هذه القطعة الأثرية في أحدِ المتاحف، وقد فعلنا ذلك دونَ تركيا، ودونَ سوء نيّةِ وازدواجيةِ الموظفين في بغداد.

توجد بقايا الفناء من التلّ وحتّى النهر، كما توجد في العديد من الأماكن آثار طلاءٍ أشبه بالقار، ولكنّه أكثر صلابة، ولا أعلمُ هل كان هذا عبارةً عن سدّ، أم أنّه حاجز أو رصيف؟!

عند خروجنا من القرية كان نصفُ سكّانها يتطلعون لنا؛ سواء كانوا مترجلين أو ممتطين جيادهم، وبينما نحن نجتازُ بعض بيوت الطّين الفقيرة، مررنا أمام أحد البيوت فرأينا رجلًا وزوجته، وهما مازالا شابّيْن، كانا جالسين على الأرض؛ الواحدُ أمام الآخر، وأمامهما إناءٌ خزفي مملوء بماء الصابون، وكان الرجل عاري الصدر حتّى الحزام، وقد أحنى رأسَه في الإناء، وكانت زوجته تغسل له شعره بكلّ عناية.

وقد لاحظتُ أنّ الرجال هنا يتركون خصلاتِ شعرهم طويلة، ويشدونها إلى الخلف، وأحيانًا يتركونها تتدلّى تحت عباءتهم، وبعضهم يصنع ضفيرتيْن ويسدلونهما إلى الإمام، أي تحت الحنك، وعلى الأكتاف.

استأنَفْنا المسير، وقد أصبح الوقتُ متأخرًا، ولنرتاح من التعب استحممنا في النّهر سابحين خلف القارب، وبعد العشاء ذهبنا لتدخين الغليون، كانت هذه الليلة هادئة، والنجومُ لامعة، ولا يوجد شيء في هذه الصّحراء يقطع هدوءها، وأخيرًا توقفنا عن المسير في السّاعة التاسعة.

السّبت ١٧ تشرين الأول (أكتوبر):

كانتْ هذه الليلة باردةً كسابقاتها، حيث انخفضتْ درجةُ الحرارة حتّى ٣ درجات فوقَ الصّفر في تمام الرّابعة صباحًا، ولكنّني لم ألحظْ أنّ الرّجال الراقدين على الكلك خارج الخيمة قد شعروا بهذا البرد.

وفي السّاعة الثّامنة صباحًا اجتزنا شلالًا علوّه خمسون سنتيمترًا، ومن المؤكّد أنّه سدّ قديم متهدّم، وقد لاحظت أنّه من السّهل بفضل بعض أقلام الديناميت، القيام بحفر قناةٍ تسهل أمرَ عبور هذا الممرّ الخطر، إلّا أنّهم حذرون من القيام بعمل مفيدٍ كهذا.

لقد اضطررنا إلى جمع كلّ الأمتعة، وكلّ تجهيزاتنا في الخيمة عند عبورنا لهذا الممرّ، ثمّ جرفنا التيار، فوجدنا أنفسنا في مأزق شديد، حيث بدأ الزورق يميل مِن كلّ جهة، ويصدر صوتًا عاليًا، فيبدو كأنّ كلّ شيء فيه قد تكسّر، فانقلبت الأمتعة، ولمست إحدى زوايا القارب الأرض، ويبدو أنّه وصل إلى الزيغان، لكننا عبرنا هذا المأزق بسلام، ولكنّ القارب قد أصبح معينًا بدلًا من كوْنه مستطيلًا، وقد تمزقت بعضُ الأربطة وتشقّقت بعض القرب، وظللنا نطفو فوق الماء حتّى وصلنا

إلى أقرب ضفّة، وعند وصولنا بدأ أصحاب الكلك في إصلاح بعض الأضرار، وقد استغرقوا حوالي ساعة في ذلك، بينما ذهبنا نحن للممشى على الساحل المرتفع.

وقضينا النهارَ بلا عمل، وبالتّدخين، وقد كان المترجم الجديد لطيفًا ومجاملًا، وكان يرضينا، وينظر إلينا بسذاجة، بعيني كلب كبير. كما كان يعدّ لنا الغليون بمهارة، ولا يكلّفنا عناء إعداده بأنفسنا، وكان أيضًا نظيفًا وشديدَ الاهتمام.

في السّاعة العاشرة مررنا أمام مصبّ الزاب الكبير، ذي المياه الزرقاء الصافية النّابعة من الجبال، فيلوّن مياه دجلة الصفراء والغبراء قبل أن تختلط بها، وقد علمت أنّ الزاب الكبير يصبّ في نهر دجلة من خلال رافدين؛ أحدهما في موسم الجفاف هذا من السّنة.

وفي السّاعة الواحدة بعد الظهر، أشار المحرار إلى ٣١ درجة، أي أنّه ازداد ٢٧ درجة خلال تسعِ ساعات.

كنّا نمرّ من وقتٍ إلى آخر أمام قرى صغيرة، وقد كان سكّانها ينظرون بفضول إلى خيمتنا البيضاء وهي تعوم، بينما كانت الكلاب تنبح.

ضفافُ دجلة مستوية كما ذكرت سابقًا بحيث يضيع مدى البصر في الصحراء الرمليّة، كما توجد بعض التلال التي يصطدم بها التّيار، فيرتد حتّى تسقط السواحل عموديًّا في النهر.

وفي السّاعة السادسة مساءً نستمتع بالمنظر البديع لغروب الشمس، حيث السّماء زرقاءَ شفافة، وقد أسدلتِ الشّمس أشعتها الذّهبية الأخيرة قبل رحيلها، ولا توجد أيّ رياح تعكّر هذا الصفاء، أمّا النهر فهو عريض ومهيب، يجري باستمرار، وتدبّ الحياة في هذه اللّوحة البديعة عندما نرى من بعيد قافلة جِمال تقطع النهر سيرًا على الأقدام.

وقد انزعجتِ الحيوانات من صراخ الجمّالين، ثمّ يسود الصّمت مرّة أخرى بعد عبور آخر جَمل، ثمّ تختفي القافلة بكلّ هدوء في الأفق. وفجأة يوقظنا صوت يوفان من هذه الغفلة السّاحرة، سائلًا إيّانا إنْ كنّا نريد العشاء.

ما أجملَ أن يتلقّى المرءُ خدمةً من خدم كهؤلاء، وكأنّك وحدك، كما أن المسلم كاملُ المزايا، من هذه النّاحية، فتجدهم يخدمونك على أكمل وجْه، وكذلك الجنود المجدّفين، فهُم أيضًا بمثابة الخدم. فلا تسمعُ لهم صوتًا أو صراخًا، أو حتّى ضحكًا، فهُم جالسون في أماكنهم ولا يغادرون أبدًا، وطوالَ النّهار يفكرون ويحلمون، والجنود يساعدون أحيانًا في المطبخ كمسلمين حقيقيّين، كما أنّهم لا يأكلون اللحوم التي لم يذبحوها بأنفسهم، وحتّى يتمكّنوا من تناول الطّعام الذي يبقى منّا، فقد طلبوا أن يكونوا ممّن يعملون في الفناء الداخلي.

في السّاعة الثّامنة حلّ الظّلام فتوقّفنا قرب الساحل، وجلسنا داخل الخيمة، وقمتُ أنا بقراءة بعض النّشرات التي أحضرتها من الموصل.

ثمّ نمنا– أنا وهاملن– لمدّة ساعتين، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، استيقظنا على صوت كلام وجَلَبة، ودخل بطرس علينا مثل المجنون، فقفزنا من أماكننا، وأخذ كلّ منّا بندقيته الجاهزة، وخرجنا لنرى ماذا يحدث، فوجدنا حوالي خمسة عشر رجلًا يصيحون ويقومون ببعض الحركات، وقفز من بينهم ثلاثة أو أربعةُ رجال إلى الماء، واضعين السّكاكين بين أسنانهم، ويتّجهون نحو كلكنا لشقّ القرب.

فقام أحدُ أفراد الشرطة بقطع الحبل الذي يربطنا بالأرض، فقد كنّا لسوء الحظ قريبين جدًّا من الضّفاف، حيث كان الكلك فوق الرمال، حتّى ظنّنت أننا لن نتمكن من التحرّك، ولكنّنا نجحنا في ذلك بعد جهدٍ كبير وابتعدنا عن السّاحل،

فاتبعنا بعض القراصنة سباحةً في النهر، ولكنّ الحرس أطلقوا عليهم بعض الطلقات، وأفرغت عليهم أنا جميعَ طلقات بندقيتي من نوع وينجستر.

فشعروا بالخوف ورجعوا إلى الضّفة، أمّا نحن فقد تحرّكنا بهدوء وحذر، حيث إنّه لا يمكننا الانجراف إلى عمق قليل، فقد كان أولئك الأشقياء يتبعونا على طول السّاحل، فقمت بحشو بندقيّتي، وإطلاق بعض الرصاصات، وبعدها لم أرَ منهم أحدًا، ثمّ أعطيت أوامري بالتوقّف عند الضفة المقابلة.

وذهب أحدُ الجنود لحراستنا على اليابسة، حتّى يتمكّن من رؤية القادمين من مكانٍ بعيد، أمّا باقي الطّاقم إلى جانب يوفان فقد سهروا من جهة النهر، خاصّة من الجهةً العليا من المجرى، حيث إنّ هؤلاء اللّصوص قد اعتادوا على السباحة بدون إصدارِ أصوات، فهُم يركبون قربةً منفوخة ويتركون التيار يجرفهم في الماء، بعد قليل عدنا إلى خيمتنا، وسرعان ما أنسانا النّعاسُ خطر هؤلاء القوم.

١٨ تشرين الأول (أكتوبر):

عند شروق الشّمس، في السّاعة السادسة صباحًا واصلنا المسير، فقد كان بالقرب من موقعنا مناطقُ سريعة الجريان وصعبة ينبغي أن نجتازها. وبعد نصف ساعة تقريبًا وصلنا إلى مكانٍ ترتفع فيه بعض الصخور الضخمة التي تهددنا بأمواجها الشّديدة، ونحن وسط تيار سريع.

وحوالي السّاعة العاشرة مررنا بالقرب من ضيعة أعراب، ورأينا بها رجالًا ونساء عُراة، وكانوا يضعون ملابسهم فوق رؤوسهم أثناء عبورهم النهر، ويمسكون بذراعهم قربةً منفوخة ليستندوا عليها، وهم لا يسبحون إلّا بأقدامهم.

وفي السّاعة الرابعة مررنا بالقرب من تلّ مرتفع على الضفة اليمنى للنهر، وقد علمت أنّه هضبة قلعة الشرقاط التي دفنت فيها أطلال قصور آشورية،

وأهمها الهضبة الكبرى المعروفة، وتبلغ مساحة أراضيها أكثر من أربعة كيلو مترات، وهذا هو مكانُ أقدم المدن الآشورية، وقد وجد فيها لايارد المنحوتات والطابوق، ووجد اسم ملكٍ منحوت على ثيران المداخل الرئيسية للنمرود.

ويفترض أن تقوم كالح في مكانِ هذه الأطلال، وهي أحدُ المدن القديمة الأربع المذكورة في التّوراة- سفر التكوين- ويزعم البعض أنّ هذا مكان (أور) مدينة إبراهيم.

أمّا الأمرُ الثّابت أنّ هذا المكان هو موقع Gaenes المدينة المندرسة، وقد ذكرَ كزينيفون بأنّ العشرة آلاف يونانيًّا قد عبروا نهرَ دجلة بالقرب من هذه المدينة، عندما توفي كورش بالقرب من بابل فعادوا إلى بلادهم.

إنّ مجرى النهر الآن أوسعُ ممّا كان في الموصل، حيث إنّ الروافد التي تصبّ فيه من الضّفة اليسرى، والتي تأتي من جبال كردستان جعلته يصبح أكثر اتساعًا. وفي المساء رأينا أعدادًا غفيرة من الدراج على الضّفة اليمنى، وأحيانًا كنّا نصادف عيونًا كبريتية تنشرُ رائحتها في الجوّ وكأنّها رائحة بيض فاسد.

وهذا الوقت من اليوم أجملُ الأوقات، كما كان بالأمس تمامًا، وبعد العشاء بساعة، توقّفنا على السّاحل المقابل لقرية صغيرة، وهنا رأينا زراعة البطيخ بحجم كبير، وطوال الليل كنّا نسمع صوت طلقاتِ نار ونباح الكلاب، وقد علمت أنّ الأهالي كانوا يطردون الخنازير، حيث إنّ هذه الحيوانات تتكاثر في هذه الأطراف، وتأتي في اللّيل فتسبّب أضرارًا كبيرة في البطيخ.

١٩ تشرين الأول (أكتوبر):

إنّ هذا هو اليومُ الرابع على ركوبنا في الماء، وأحدُ الكلاكين مصاب بمرض الرّبو الحادّ، وقد طلب منّي علاجًا ضدّ السّعال، ولكنني لم أجد أيّ شيء سوى

أن أنصحه بتغيير مهنته، حيث إنّ مهنته هذه تجبره على قضاء النّهار كلّه في الماء، والنّزول في الماء حتّى نصف جسمه لكي ينفخ قربة ويملؤها هواء، ممّا يؤدّي إلى دمار صحّته والموت القريب.

على الضّفة اليمنى يوجد بعضُ حقول دخن وقنب وسطَ هذه الحقول، وفي الشّمس المرتفعة، يوجد صبيّان مسلحان بالمقاليع، ويتسلّقان فوق حصيرة تحملها أربعةُ أوتاد، وذلك لإبعاد العصافير بتوجيه الحجارة عليها.

ومن وقتٍ إلى آخر، نجد آلافَ العصافير الغارقة. في السّاعة العاشرة مررنا أمامَ مصبّ الزاب الصّغير، ويبدأ ظهور الزباب بعد الظّهر، وهو من نوع مزعج جدًّا، وقد كانت درجات الحرارة في الظلّ ٣٥°.

وفي السّاعة الخامسة اجتزنا مقطعًا من جبل حمرين بشكل نصف دائرة، يمتدّ بشت كوه في لورستان الفارسية، ومررنا أيضًا بعيون كبريتية تلوث الهواء.

بعد العشاء قمْنا بعمل غرفةٍ مظلمة، وذلك لاستبدال الورق الحسّاس لأفلام التّصوير، فقمنا بوضع أسرّة المخيم فوق بعضها البعض، وكسْوها بالأغطية التي نغطّي نفسنا بها.

دخلتُ إلى هذه الغرفة الضّيقة وبقيت بها لمدّة ربع ساعة، وبجواري مصباح زجاجي أحمر يزيد من درجة الحرارة. ومررنا بالقرب من مخيّم أعراب يشعلون نيرانًا شديدة، والماء هنا أقلّ عمقًا، نسمع في بعض الأماكن صوتَ القرب وهي تصطدم بالحصى، وقد كان لدينا عند بدْء السّفر مائة وخمسين قربة، ولم يبق لدينا عند وصولنا سوى مائة قربة تقريبًا.

وفي السّاعة الثّامنة والنصف توقّفنا بالقرب من ضفة عالية بعض الشيء مغطّاة بالعوسج، فيها آثارُ ثعالب وخنازير والكثيرُ من الحيّات؛ ولذلك يفضّل الرجال

المعسكرون على اليابسة إشعالَ نارٍ كبيرة، وقد كنت أسهرُ للتأكّد من وجود مَن يحرس القارب دائمًا، متّجهًا بنظره نحو النّهر، كما إلى الساحل، ومحترسًا من الرّيف.

٢٠ تشرين الأول (أكتوبر):

لم يحدثْ شيء مثير في هذا اليوم، ولكنّنا لاحظنا أفواجًا كثيرة من العصافير المهاجرة.

وفي السّاعة الحادية عشرة صادفنا آثارَ فشلِ قاربٍ بخاريّ إنجليزي كان يحاول صعودَ دجلة بتهوّر دونَ القيام بالمجسّات المطلوبة، وضفاف النهر مازالت مستوية وممهّدة.

وفي السّاعة العاشرة مساءً وصلنا إلى تكريت.

٢١ تشرين الأول (أكتوبر):

ينظر الأهالي إلى تكريت وكأنّها واحة خضراء، رغم أنّها لا تحتوي سوى على أربع أشجار نخيل. وعند وصولنا بالأمس، كان القمرُ ينير إحدى أشجار النخيل الواقعة وسط ساحةٍ صغيرة مُحاطة ببيوت منخفضة باتجاه النهر، ولكنّنا الآن نراها أقلّ جمالًا من الأمس.

كان أوّل ما نريد عمله هو تجديدَ تجهيزاتنا، فاشترينا بعض الدجاج وخروفًا تعهّد الشّرطي بذبحه وإعداده، بينما ذهبنا نحن للتجوّل في أرجاء المدينة، وقد دفعنا مقابلَ هذا الخروف سبعةً وعشرين قرشًا- خمسة فرنكات و٤٠- وتركنا جلده للشّرطي، بينما كنا نستطيع بيعه مقابل خمسة قروش (فرنك واحد).

وقد دفعنا أكثر ممّا يدفع سكان المدينة، فقد أخذ الطباخ عمولة عليه.

وقد ولد الأمير صلاح الدين في مدينة تكريت الذي اشتهر بالحملة الصليبية الثّالثة، وحملاته على المسيحيّين، فقد حارب بشهامة ومهارة، حتّى هزم ريتشارد قلب الأسد.

أمّا قلعة المدينة فكانت عبارة عن أطلال، وتقع في جهة المدينة العتيقة، وتعود إلى عهد تيمور لنك، وقد هزم سابور أمام أسوارها، ورغم ذلك إلّا أنّ المدينة أصبحت بعيدة تمامًا عن أمجادها السابقة.

وفي السّاحة التي أنزلنا فيها رحالنا، تقوم ساحةٌ رملية كأنها ساحل رملي، ويجلس بها الباعة بالبطيخ والرّقي لبيعها، منتظرين المشترين بفارغ الصبر، وفي الطّرف الآخر يجلس القصابون وقد ذبحوا خروفًا، وعلّقوه من إحدى رجليه، وراحوا يقطعون للمشترين القطعة التي يريدونها.

تضمّ مدينة تكريت حوالي ألفي منزل، دون احتساب الخرابات الكثيرة التي تمتد إلى الخلف وكأنّها ضاحية مهملة أو متهدّمة. وإلى الجنوب يرتفع تلّ مستقيم الشكل، على بعد مائتي متر في الطّرف السفلي من المجرى، حيث توقّفنا. أمّا من جهة الشّمال فتجد السّاحل أقلّ ارتفاعًا، والمدينة تشبه المسرحَ وسط هذين المرتفعين.

اجتزنا طرقاتِ المدينة الصّغيرة والمليئة بالأتربة البيضاء التي هي عبارة عن جدران البيوت المصنوعة من الطّين الجافّ الذي ينحلّ في الشمس، وعند وصولنا إلى نهاية المدينة الحالية نظلّ على كلّ امتداد المدينة القديمة، حيث تبدو المدينة الجديدة وكأنّها حيّة تخرج من جلدها وتتخلص منه.

مررْنا أمام القلعة، وانعطفنا نحو الجنوب قليلًا، فوجدناها مجرّد كومةٍ مشوّهة لأنقاض أسوار مشيّدة بأسمنت الحصى الخشن، أمّا المقابر فتقوم بعيدًا عن الأطلال. وفي وسطها رأينا مسجديْن أو ثلاثة في الأفق، وكذلك مدافن باشوات

أو أثرياء المسلمين، وفي الجهة الشّمالية آثار باب ذي مساند ضخمة مشيدة بالحصى والأسمنت، نصفها متهدّم، ويبدو أنّه كان مدخل قلعة أخرى كانت تسيطر على المرتفع، وهذا الباب لا يحمل أي أثر منقوش.

سرْنا بمحاذاة الساحل، حتّى عدنا إلى الكلك، وواصلنا مخرنا في النهر.

نهرُ دجلة عريض، وضفافُه منخفضة، بحيث إنّنا نشاهد في جميع الأطراف كلّ ما يمكننا رؤيته على امتداد البصر. والشّمس محرقة، والذباب لا يحتمل، وارتفعت درجة الحرارة إلى ٣٨° استرحنا قليلًا خلال الظهيرة، وفي السّاعة الثالثة مررنا أمام الإمام، الدّور وهو عبارة عن قبر مربع الشّكل يرتفع على علوّ خمسمائة مترٍ عن الساحل، وقبّته مقامة على الطراز العربي، وهي جميلة جدًّا.

وعندَ غروب الشمس نشاهد المنظرَ البديع المعهود، حيث الهدوء الذي يعمّ المكان، فيريح النّفس والجسد. والنّهر هنا أكثر اتساعًا، ومجراه أكثر تماثلًا وهدوءًا، بحيث ينسجم بنوع أكبر من السهول الفسيحة التي تحيط به.

وفي السّاعة الثامنة مساءً توقّفنا بالقرب من مخيّم صغير لأعراب مزارعين، ورغم أنّهم يبدون غيرَ خطرين، إلّا أنّنا خيّمنا على الضفة المقابلة منهم، ثمّ جاءنا اثنان أو ثلاثة منهم حاملين الحليبَ والرقي، وقد كانوا يحملونه على رؤوسهم أثناء عبورهم النهر سباحة.

٢٢ تشرين الأول (أكتوبر):

في الصّباح مررنا أمام سامراء، وجامعها الشّهير، وقد علمت أنّ هذه البلدة كانت في عهد الخلفاء مدينة كبيرة ومزدهرة، حتّى أنها كانت المقرّ المفضّل للخليفة الثّامن المعتصم بالله، الذي غيّر مقرّه بسبب طباع أهالي بغداد المقلقة، أمّا الآن فهذه المدينة ليست سوى ضاحية ليست ذات قيمةٍ كبيرة.

وقد شيّد (الملوية) برج سامراء، كما كانوا يتخيلون برج بابل، أي بسلم دائري يصعدُ حلزونيًّا حول المركز. أمّا جامع سامراء فهو مكانٌ لزيارة الشيعة، حيث إنه يضمّ رفات آخر إمام من سلالة علي رضي الله عنه، ودفن فيه أيضًا الإمام الثّاني عشر، أي المهدي الذيً سيظهر يومًا ما كالمسيح.

وفي السّاعة الثامنة صادفنا قافلة فرس تعبر النهر، ويوجد بعض البيوت على السّاحل هي منازل نوتية جاءوا إلى هذا المكان الذي يشقّ النهر الطريق فيه، ليعملوا في نقل المسافرين، ولهُم زوارق غريبة الشكل. إنّ هذه الزوارق عبارة عن أعشاش كبيرة ودائرية الشّكل، مصنوعة من خيزران محبوك، ومغطّاة بالقار، يطلقون عليها (القفة).

وهذه الزّوارق هي المستخدمة في المنطقة كلها، ويبدو أنّ أسلوب الملاحة هنا لم يتغيّر أو يتطوّر منذ عهد الآشوريّين، فقد وجدت ألواح جدارية في خرائب النمرود ونينوى مرسومٌ عليها نفس هذه الزّوارق، ويحرّكها نفس المجداف الذي يقودها في التّيار حاليًا، وبجوار هذه الزّوارق نحتت رسوم رجال ممتطين قربًا منفوخة، أي التي نشاهدها الآن في كلّ مكان وزمان. حتّى أنّ الأمتعة كانت مكوّمة بأيّ طريقة، وكأنّها في مخيّم البوهيميّين مع النساء والأطفال.

بعضُهم ينقلون الجياد في الزّورق، وبعضهم يدفعونها للسّباحة، وبعض النساء تخلّفن عن الركب، حيث كنّ يغسلنَ في النهر، وكانت إحداهنّ تسبح، بينما تخفيها الأخرياتُ بملاءاتهنّ العائمة عن أعين العامّة.

وتوجد بعضُ أشجار النخيل التي تعطي الضّفاف منظرًا جديدًا، وهنا تصل درجة الحرارة إلى ٣٩°، والذّباب كثيرٌ جدًّا، وفي المساء يحلّ مكانه فراشات صغيرة تشبه عتّة الثياب. أمّا البعوض فهو نادرٌ هنا، حيث إنّنا لم نتعرّض للسعاته.

وفي السّاعة الحادية عشرة لمحنا تلّ محاسي، أمّا الجامع الكبير ذو الشكل المربّع، والخان الواسع الذي يسيطر على السّهل بمهابة، فقد بقينا نراها لمدّة ثلاثة أرباع الساعة تقريبًا، نظرًا لأنّهم يقعون في منعطف النهر، ونحن ندور حوله.

كان كلكنا يتأرجح باستمرار، ويتفكّك بالتدريج، حيث إنّ أحزمة الخيزران قد تكسّرت في أماكنَ عديدة، كما انشقّت بعض القرب وفرغت من الهواء نتيجة لاصطدامها بالحصى والصّخور عدّة مرّات؛ لذا أصبح من المستحيل أن نواصل مسيرَنا دونَ تأرجح.

وقد تأذّى الكلك كثيرًا خلال مرورنا بالشّلال خلال اليوم الثاني من تحركنا، لذا سيكون هذا الكلك عديمَ الفائدة في نهاية الرحلة. أصبحت رائحةُ لحم الخروف كريهة، لذا أمرتُ بأن يلقى على مرأى من الرّجال الآسفين عليه، إذ يبدو أنّ حاسّة الشم لديهم أضعف ممّا لدينا، لذا لم ينتبهوا لرائحته الكريهة.

وعند غروب الشمس مررنا بالقرب من مخيّم بدو، وقد كان الأطفال عراة يتجوّلون وسط الدّجاج والحمير والثيران، بينما كانت النساء تعدّ طعام المساء أمام أكواخ الأغصان، وهذا الطّعام هو أرز القنب والحليب السّاخن. أمّا الرجال فقد كانوا جالسين على وضع القرفصاء ينظرون إلى نسائهم في صمت. وقد قرّرنا ألّا نتوقف هذه الليلة، وأنْ نتابع طوالَ الليل مع مجرى المياه.

٢٣ تشرين الأول (أكتوبر):

هذا ثامنُ يوم من الملاحة، وقد بدأ التيارُ يصبح أبطأ تدريجيًّا، حتّى كنا نسير ببطء شديد وكأنّنا لا نسيرُ مطلقًا. لم نصل إلى سنديا سوى في الساعة الرابعة صباحًا، رغم أنّنا كنّا نأمل أن نصلها بالأمس.

وفي السّاعة الثالثة رأينا بساتينَ النخيل تبدو ذات قيمة في الحويش، وفي السّاعة الخامسة رأينا قرية جديدة الصغيرة، ويوجد جنازير خشب بدائية منصوبة في كلّ ضفاف النّهر لرفع المياه في القرب، وهذه الطريقة بدائية جدًّا. والثيران يقودها طفلٌ لتسحب القرب التي تمتلئ من النّهر لكي تصبّ ماءها في ساقية حتّى تبلغ الضّفة، وهناك تجري المياه في ألف ساقية لتروي الحقول.

يصدرُ من هذه الأعمال صريرٌ مزعج من عجلات الخشب، وسيلازمنا هذا الصّرير المزعج تصاعديًّا حتّى بغداد.

٢٤ تشرين الأول (أكتوبر):

سوف نصلُ إلى بغداد اليوم، ونحن الآن في الكاظمية- الكاظمين- والساعة الآن السّادسة. وهذه البلدة عبارة عن ضاحيةٍ تقع على بُعد بضعة كيلو مترات من بغداد، وتشتهر بمزارها الشيعي.

وهناك بعضُ الأشخاص النوتيّين الذين يتعمّدون الاحتكاك بزورقنا، أثناء مرورهم بقربهم، حتّى أنّ أحد صناديقنا قد أوشكَ على الوقوع في النهر، ويبدو أنّهم فرحون جدًّا لتمكّنهم من السّخرية بنا. وقد كنت أمسك البندقية بيدي لذا أطلقت رصاصتيْن نحو زورقهم تحت خطّ التجديف بقليل.

وأخيرًا وصلنا إلى جسر القوارب، الواقع قرب الكاظمية، عند فتحه بالضبط، ولاحظنا أنّ جذوع النخيل تملأ حوافّ النهر الذي قد أصبح عريضًا ومهيبًا جدًّا. المكانُ هنا جميل جدًّا وقد رتّبنا أمتعتنا المتناثرة، وغيّرنا بزّاتنا غير المنتظمة ببزة أفضل منها.

يبدأ النّهر بالانحراف، حتّى تظهر بغداد أخيرًا، وعلى ضفتي نهر دجلة ترتفع قصورٌ فخمة، التي ترسم أسوارَها العالية المشيّدة بالطابوق على صفحات النهر الواسعة.

وتنتشر أشجارُ النخيل بكثرةٍ ما بين السطوح، وتنتصب أشجارُه فوق المياه، بحيث تسيطر على البيوت بأغصانها الخضراء.

ومنظرُ المدينة من بعيدٍ عبارةً عن كتلة ضخمةٍ لآلاف المنازل، وعلى امتداد النّظر نرى بعضَ القباب الجميلة، وأحدَ المعالم الخالدة، وبرجًا أو منارة مغطاة بالخزف القاشاني ذي الألوان الجذابة، وهذه المنارة ترتفع فوق حدائق المدينة، وتمتزج أشكالها الرّفيعة بالسماء الزرقاء الصّافية. أمّا الشمس فتطلّ عليهم فتعطي هذا المنظرَ الجذّاب ضياءً منعشًا، حتّى تبدو المدينة ساحرة.

ومِن حولها الصّحراء الشّاسعة التي تعكس ضياءها على المدينة، فتبدو كأنها مُحاطة بهالةٍ جميلة، وتبدو بغداد وكأنّها معزولة عن العالم بأسره. هذه مدينة بغداد السّاهرة، مدينة ألف ليلة وليلة.

أعتقد أنّه يجب النظرُ إلى بلاد الشّرق كلّها من خلال نظرة ضيقة، لنجد أنّ الطّبيعة وحدها هي المثالية بها، ونجد أنّ القصور والمنازل ليست سوى خرابات قد زرعت وسطها ألواحٌ خشبية حقيرة. أمّا عن بقايا الأسوار التي سقط جزء منها في النّهر، فقد كانت مقامة من الطابوق والأسمنت، كما كانت سميكة ومتينة، ويقرب سُمكُها من المتر.

وعند مدخل المدينة، نكون بمحاذاة الضّفة اليسرى على ساحل رملي.

الفصلُ الخامس

بغداد

محتوياتُ هذا الفصل:

الوصولُ إلى القنصلية، فندق أوربا، نانو نوري، الحنّاء، الأوروبّيون في بغداد، الآباء الكرمليّون، النواقيس والقرآن، برج بابل، بغداد، الضّواحي، الأسوار، المراقد والجوامع الرئيسية، زيارة إلى خشمين، التراموواي، جامعُ الإمام موسى، تعصب النّاس، عشاءٌ لدى السيد أصفر، البريدُ عبر الصحراء، عرب شمر الحمويون، إرسال الرزم، ومصاعب ذلك، شاه فارس في زيارة إلى بغداد، رفضُ الوالي إعطاءنا جندرمة، مجاميعنا تسرق، الرحيلُ عن بغداد.

من ٢٤ إلى ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر)

بمجرّد وصولنا إلى بغداد تركنا الكلك بحراسةِ يوفان والجدافين والجنود، واتّجهنا إلى القنصلية، وقد رافقنا أحدُ أفراد الشرطة والمترجم بطرس، كان الطّريق طويلًا جدًّا، حيث قطعنا أولًا ساحةً كبيرة، مكشوفة للشّمس؛ هي الميدان، ويحيطها باعة كلّ أنواع السّلع، ثمّ اجتزنا فناءَ معسكر المدفعية، الذي يزيّنه مدفع برونزي قديم وكبير، ثمّ واصلنا المسير في أروقة السّوق الذي قادنا إلى الحيّ المسيحي– عقد النصارى– وذلك من خلال دهاليز طرقات اتّجاهها موازٍ للنهر تقريبًا.

وأخيرًا وصلنا إلى القنصلية، ولكنّنا وجدنا مسيو دي سارزيك، يبدو أنّه مستعجلٌ جدًّا للعودة إلى الريف، فقد كان في عطلة، ولكنّه اضطرّ إلى ترك الريف بضعةَ أيّام عند وصول المونسينور ألتايمر. لذا لم يكن مهتمًّا بإيجاد بيت نستطيع أن نقيمَ فيه، ولكنه قال:

«هناك فندقٌ يديره يوناني، غير بعيد من هنا، سأعمل على أن يقودوكم إليه».

وقدّم لنا الرسائل التي كانت قد أرسلتْ لنا على القنصلية، ثمّ غادَرَنا مسرعًا ليجهّز نفسه للسفر. وعندما وجدناه مستعجلًا هكذا؛ لم نجد أنّه من اللياقة إطالة زيارتنا لذا استأذنا منه في الانصراف بعد بضع دقائق، فطلب من أحد القواصين أن يرافقنا، كما قال وهو يغادرنا:

«إنْ كنتم بحاجة ما لدى السّلطات، فلا تعتمدوا على وساطتي لأنّني لست بوضع جيّد مع الوالي، ومع نائب الوالي، وكلّ الموظفين.

حاولوا أن تدبّروا أنفسكم بأنفسكم، بواسطة الإكراميات (البقشيش)».

وعندها غادرنا دونَ إلحاح، وقد اندهشنا كثيرًا من هذه المقابلة، فلم أكن لأستقبل بهذه البرودة في أيّ بلدٍ آخر من قبل أيّ من المواطنين.

أخذونا إلى الفندق الشّهير الذي لا يتردّد في اتّخاذ اسم له هو (فندق أوروبا) وقد كان صاحبُه لا يعرف سوى اليونانية والعربية. كانت الساعة حينها الواحدة، وكنا جياعًا جدًّا، فقدّم لنا صاحب الفندق نفسه، وقال إنّه سيكون تحت تصرفنا بكلّ طيب خاطر، وأعطانا أفضل غرفة في الفندق.

ثمّ جاءنا شخص كلداني يدعى (نانونوري) طالبًا أن يعمل لدينا كدليل وترجمان حتّى طهران، وأعطانا رسالة من القنصل تحمل هذه الكلمات: «مسيو دي سارزيك يوصي السّيدين بنديه وهاملن بالمدعو (نانونوري) حامل الكتابة، إن كانت بحاجة إلى ترجمان».

وقد حدّثنا الدومينيكيون في الموصل عنه، وكان مسيو كوتييه معجبًا به جدًّا، حتّى أنّه أهداه فرسًا عندما تركه، ولكنّ الأمرَ المحيّر هو لماذا تركه إن كان جيدًا جدًّا، خاصّة وأنه سيحتاجه خلال رحلته في البلاد؟

وقد أخبرنا نانو أنّه كان مريضًا، وبما أنّه لا يحبّ أن يكون المرء معقدًا في بغداد فقد قبلنا به منذ اليوم الأوّل، وكلّفناه بمساعدتنا في أمر عبور أمتعتنا مكوس-جمارك- بغداد.

وبعد الغداء ذهبنا لزيارة المونسينور ألتماير والآباء الذين يرافقونه، وقد علمت أنّهم استغرقوا في ركوب دجلة أكثرَ منّا بيومين، حيث لحقت بهم ريحٌ شديدة جدًّا لمدّة ستّ وثلاثين ساعة، حتّى أنّهم اضطرّوا إلى التوقّف على الساحل في انتظار هدوءِ الريح. ثمّ ذهبنا لزيارة السّيد (خوري) وكيل القنصلية الذي استقبلنا بلطف كبير،

وقد علمت أنّه ولد في دمشق، كما أنّه من أقارب مسيو سيوفي، وقد جاء من مكان فرنسي في الزنزيبار، حيث كان في موضع اعتبار مرموق لدى السلطان.

واتّجهنا عائدين إلى الكلك مجتازين الأسواق، وفي الطريق انحرفنا لنتصل بالمصرفي (أصفر) لنخبره أنّنا سنطلب في الغد مبلغًا كبيرًا بموجب كتاب القرض- الكمبيالة- سرْنا فوق ظهور حمير بيضاء ضخمة الحجم ومكسوّة بقماش غريب بلون الحناء.

استأجرناها بسعر معتدل جدًّا، وتعتبر عربات بغداد، كما أنّها تسير بشيء من المهابة اللّطيفة، دفعناً هذا وذاك حتّى وصلنا إلى الكلك. وأخذنا جميع أغراضنا النّفيسة معنا، وتركنا القارب يمخُر في النّهر تحت حراسة يوفان وبطرس والجند، فهو سيرسو في مكانٍ أبعَدَ على ساحل رمليّ صغير، حيث سنلقاه وسط المدينة.

أمّا زيارة الجمارك فسوف تكون على جسر القوارب، حيث سيكون نانو موجودًا، وسيمنح الهدايا الضّرورية تجنّبًا للإزعاجات. اجتزنا مرّة أخرى على ظهور الحمير الثّكناتِ حيث الجنودُ يقومون بمناورات وتمارين على الطريقة الفرنسية. وهذه المعسكرات كبيرة ومشيّدة بشكل جيد، وتطلّ على نهر دجلة، والمستشفى العسكري مقامٌ في جهة، بحيث يبدو المشرع كلّه وفق تصميم ذكي.

وجدنا الكلك في المكان والموعد المتّفق عليه، وبه جميع الطاقم، المتمثلين في اثنين أو ثلاثة من الأوروبيّين المتشرّدين الذين لا نتمكّن من معرفة جنسيتهم بوضوح، والذين يحاولون مواصلة حياتهم المشوّشة هنا. ولا يوجد في بغداد سوى ثلاثة فرنسيّين، أحدهم هو مسيو موجيل (M. Mougel) مهندس مناجم متميز، وموظّف لدى الحكومة التركية، الشّخص الثاني يدير معمل الرايات العسكرية، والثّالث هو قبطان بارجة سابق.

٢٥ تشرين الأول (أكتوبر):

لا شكّ أنّ معنويات العاملين في فندق أوروبا الذي نزلنا به بحاجة إلى المزيد من الاهتمام؛ فقد كانوا يلعبون طوالَ الليل، وفي السّاعة السادسة، خرجت من غرفتي، ولمحت من خلال أغطيةِ شبّاك يطلّ على الشّرفة ستة أشخاص جالسين حول سجادةٍ خضراء، وعلى ضوء مصباح مدخن، وقد كان مضيفنا صاحب الفندق بينهم، وهو كما ذكرت سابقًا يوناني الجنسية.

وفي الصّباح ذهبنا لزيارة الآباء الكرمليّين المقيمين في بغداد منذ فترة طويلة، بعد أنْ خلفوا الكبوشيين الإيطاليين.

وقد أخبرنا هؤلاء الآباء عن جميع الصّعوبات التي صادفتهم عند تشييد الكنيسة، خاصّة عندما حاولوا وضعَ ناقوس في منارتها، كما يقول المسلمون عندما يتحدّثون عن برج الأجراس.

خرجنا من عند الكرمليّين، ودخلنا كنيستهم حيث يقام القدّاس، ولم نجد بها أيّ كراسي ما عدا في مؤخّرة الكورس- الجوق-.

أمّا القسم الأكبر، وحتّى مصطبة المذبح، فقد كان مفروشًا بالحصير، وعندما يأتي المؤمنون يركعون فوقها؛ الرّجال إلى اليمين والنّساء إلى اليسار. فتجلس السّيدات منعزلات، ومنظرهنّ جميلٌ حيث يرتدينَ أغطية الرأس زاهية الألوان، التي تزدادُ لمعانًا من أشعّة الشمس التي تنفذ من خلال الشبابيك.

وقد علمت أنّ معظم الكرمليّين المقيمين في بغداد من ذوي المنزلة الكبيرة، لذا فهُم عند قدومهم إلى باريس كانوا يعظون بكلّ جدارة. وقد روي لي أنّ أحدهم حين كان يتحدّث في كنيسة الانتصار في (باريس) قد تفوّه بعظةٍ مميزة عن بلبلة

الألسنة والدّيانات عند الشّعوب المجاورة لبرج بابل، حتّى أنّ أهالي الخورنة قدّموا له تمثالًا لمريم العذراء.

فنذرَ هذا الأب المحترمُ أنْ يحمل هو بنفسه هذا التّمثال حتّى قمة الهضبة التي يشاهدون فيها قاعدةَ برج بابل، وبالفعل عند عودته إلى بغداد أكمل نذره رغم الأخطار الجسيمة التي تعرّض لها، والمجهودِ الكبير الذي بذله. وبعد بضع سنوات جاء أهالي البلد، وأخبروا قنصلَ فرنسا أنّهم اكتشفوا قطعةً عجيبة فوق هضبة بابل، وعندما أحضروها له قام القنصل باستدعاء الأب الذي وضعها في ذلك المكان، والذي كان لا يزال مقيمًا في بغداد على العشاء، ووعده بأنّه سيريه بعد العشاء قطعة ذات فائدةٍ دينية وجدَت في برج بابل، وبالطّبع عرف ذلك المسكين أنّها تمثاله، إنّما بسبب عدم قدرته واستعداده لم يستطعْ إيصالها إلى مكانها.

لنْ أطيل الحديث عن أوصاف بغداد، فقد قام مسيو دي ريفوار عام ١٨٨٤ بوصفها بشكل كامل، وفي نفس العام نشر تقرير (حول العالم) بقلم مدام ديلافوا التي زارتْ هذه المدينة قبل عامين، وقد كان من حُسن حظّها أن تقوم بزيارتها خلال وجود قنصلية بيريتييه الذي كان مقيمًا في بغداد مع زوجته وبناته، الذين ساعدوها في معرفة كلّ التفاصيل والأخبار التي تحتاجها؛ لذا سأكتفي بتقديم تفاصيل جولاتي في بغداد، وباختصار:

إنّ بغداد هي المركزُ الأكبر لتموين القوافل، كما أنّها رأس خط الزوارق البخارية التي تمخُر في نهر دجلة. كما أنّ تركيا قد اتّخذتها عاصمة لها مرّة ثانية، حيث إنّ لها حكومة عسكرية لا تراجع سوى وزير الحربية.

ومدينةُ بغداد لا تشبه القسطنطينيّة من حيث المركز والمساحة والمدنية، فهي عبارةٌ عن واحةٍ كبيرة، أو غابةٍ عجيبة من النّخيل الذي ينمو وسط الصحراء، وعلى ضفاف دجلة.

وبغداد مُحاطة بالرّمال من جميع الجهات على مسافة أيّام من السّير، فتجد أنّ الصّحراء تحيطها من الشّمال الغربي، ويحدّها من الجنوب أهوار شط العرب، أمّا من الشّرق فيحدّها جبال كردستان على بعد مسافة طويلة.

اجتزنا أسوارَ التّراب التي تحيط بساتين النخيل والرمان والأشجار المثمرة الأخرى، ثمّ استدرنا إلى اليسار، وسِرْنا بمحاذاة الأسوار من الخارج، التي بدت في حالةٍ متهالكة، ولا تصلح للدّفاع عن المدينة.

حيث إنّ الأسوار الترابية والمشيدة بالطابوق غائرة في الخنادق التي قد امتلأت تقريبًا، إلّا أنّ الجزء المتبقي منها يُعطينا فكرة جيدة عن سكانه وأهمية المدينة في سابق مجدها.

والزّوايا الرئيسية للأسوار مشيّدة بأبراج مرتفعة، ومعظم هذه الأبراج تحمل أشرطةً منقوشة تبرز فيها بوضوح بعض الآيات القرآنية.

وتوجد مساحةٌ كبيرة فارغة، يبدو أنّها كانت ساحة كبيرة للأسلحة أمام هذا الجزءِ من الأسوار. كما يوجد هنا وهناك نخلتان أو ثلاث تحتضن مسجدًا أو ضريحًا، أمّا المقابر فتقع خارج المدينة، وعند خروجنا مررنا بمقبرة ضخمة وواسعة. وصلنا أمام باب الطلسم الشّهير الذي دخل منه مراد الرابع منتصرًا إلى بغداد.

وهو بابٌ مبني، فقد اعتادوا بناءَ الباب الذي يدخل منه السلطان منتصرًا إلى مدينةٍ محصّنة. وقد لمحنا المدينة، وعلى مسافة بعيدة، القبّة المسطحة لمرقد عبد القادر التي أقامها مراد الرابع بعد استيلائه على بغداد.

وعلى مسافة أبعد منها، رأينا جامعَ الشّيخ عمر، وجامع الأميرة زبيدة، وقد كانتْ هذه المرأة مفضّلة لدى الخليفة هارون الرشيد، كما كان لها تأثيرٌ كبير عليه. واصلنا المسيرَ بمحاذاة الأسوار أو التّحصينات، حتّى اجتزنا حيّ ثكنات الفروسية الواسعة،

ثمّ عدْنا من باب الشمال. حاولنا زيارة الجوامع، أو على الأقل رؤية مداخلها، فقد كان من المستحيل دخولُها، فقمنا بالمرور على التّوالي أمام جامع عبد القادر، ثمّ جامع عبد الرحمن، ثمّ جامع الشّيخ يوسف. كانت هذه الجوامع كلها مشيّدةً بالطابوق، ومكسوّة بمربّعات من الخزف الأزرق، والأسود، والأصفر، والأبيض، مشكّلة منها رسومًا لطيفة جدًّا في معظم الأحيان بحيث تعطي هذه الرّسومات مظهرًا شفّافًا وجميلًا لمنائر هذه المساجد.

٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) :

تراجعنا عن زيارة (بابل) حيث إنّنا سنضطرّ إلى إعداد قافلة (كروان) خاصّة، ممّا سيحتاج إلى وقتٍ طويل، وسنضطرّ حينها إلى التّضحية بجزءٍ من رحلتنا إلى كردستان.

تجوّلنا في الأسواق، ولاحظنا أنّهم يطالبون بأسعار مرتفعة جدًّا، حتّى أننا اكتفينا بمشاهدة ما كنّا نرغب بشرائه، ثمّ بعثنا شخصًا ثالثًا لشرائه.

وذاتَ مرّة كنت أتفاوض مع بائع يهودي في الموصل بخصوص ثوب موشى، وقد قال للمترجم: «أنا أعلم جيدًا أنّ هذا الثّوب لا يساوي المبلغ الذي أطالب به، ولكنْ بما أنّ هؤلاء السادة معجبون به فإنّني أضاعف الثّمن».

عند عودتنا إلى الفندق وجدنا صاحبَ الفندق غاضبًا، وهذا لأنّني في الصباح دخلت غرفتي لأخذ شيء كنت قد نسيته، فوجدت خادمين يعبثان بأغراضي، فأبعدتهما ركلًا، لذا فقد ذهبا إليه يشتكيان منّي قائلين إنّني ضربتهما دونَ سبب. ولحُسن حظّنا جاء السيد خوري في الوقت الذي جئنا بـه، وقام بشرحِ الحقيقة لـه، وبعد ذلك أشفقنا على هذين المسكينيْن، وتشفّعنا لهما لدى صاحب الفنـدق ليغفر لهما.

كنا مرتبطين بالعشاء هذا المساء، مع السيد أصفر صرافنا، لذا خصّصنا فترة بعد الظّهيرة لزيارة الكاظمية ومرقد الإمام موسى الكاظم.

أمّا بعد الغداء، فقد عبرنا النّهر على جسر قوارب، برفقة نانو نوري مترجمنا الجديد، وبعد بضع خطواتٍ من المسير خلال أزقّة قذرة في الضّفة اليمنى من دجلة، وصلنا إلى ساحة صغيرة، حيث يوجد تراموااي. وقد كان عبارة عن عربة حقيرة، تشبه العرباتِ القديمة المهملةَ عبر الطّرق بعد استهلاكها، وقد استخدمها بعض المتسكعين كمأوًى لهم، لم يكنْ لها أبواب أو زجاجُ شبابيك، وبعضُ الشّبابيك تترك أشعة الشمس تدخلُ من خلال العارضات المكسورة، والأبواب شبه محطمة.

وكلّ نصف ساعةٍ يمرّ بنا حصانان مربوطان يقودهما حوذيّ لا يجيد السوق، وقد حاول هذا السّائق أن يعطينا عملةً مزيّفة. سرنا لبعض الوقت في شارع مزدحم جدًّا، ثمّ سرْنا بامتداد جدران من الطّين تحيط بالبساتين، ثمّ تركنا بغداد.

ودخلنا سهلًا درجةُ الحرارة به مرتفعة، وقبل وصولنا إلى الصحراء التي تمتد غربًا على امتداد النّظر، رجانا السائق أن ننزل مرّتين حيث إنّ الطريق قد تكسر بمسافة عشرة أمتار، وغارت العربةُ في بالوعة بحيث إنّ محورها بدأ يسير على الأرض.

لقد أصبح هذا الطّريق على هذا النحو منذ ستة أشهر، أي منذ حدوث العاصفة في شهر آيار الماضي. وبدلًا من قيام إدارة المشروع بالتّصليحات اللازمة، يجدون الأكثر سهولة جعل المسافرين يترجّلون في الأماكن الصّعبة. وعلى مسافة أبعد من هنا نجد أنّ الخطّ قد غار في الأرض، فقام مجموعةٌ من الرجال بسند العربة ومنعها من السقوط.

طولُ هذا الطريق أربعةُ كيلومترات، قطعتها العربةُ في خمسة وعشرين دقيقة، فبالرّغم من توقّفنا مرتين، إلّا أنّ الحوذي- السائس- كان يضرب الجياد طوال الوقت بالسّياط دونَ الاهتمام بالضّوضاء التي تحدثها. وقبل وصولنا إلى الكاظمية بفترة قصيرة اتّبعنا نهر دجلة، ثمّ عبرنا غابةَ النخيل العجيبة، ووجدنا بها عدّة خنازير خشبية تصدر صريرًا مزعجًا، وتجرّها الجياد والثيران.

وأخيرًا وصلنا مدخلَ الضّاحية، فتوقف الترامواي، فتركنا وتوجهنا إلى مرقد الجامع المقدس، حيث يرقد الإمام موسى الذي يقال إنّه مدفون في الكاظمية، وهو الإمامُ الأوّل الذي يقرّه الشيعة، أمّا الاثنا عشر السّابقون فيقرّهم السّنيون. ويعتبر هذا الجامع مكانًا للحجّ، ويحترمه الفرس الذين يشغلون معظمَ القرية، بالإضافة إلى بعض اليهود.

ولا يوجد شخصٌ فارسي واحد يأتي إلى كربلاء دون أنْ يأتي لزيارة هذا الضّريح، وتقديم الأكرام في الكاظمية. وهذا الجامع موضع تقدير واحترام كبير بالنّسبة للشيعة، أمّا إذا نظر الشّخص الأوروبي إليه نظرة واحدة فكأنّه قد دنّسه.

عندما وصلنا إلى القبّة، دهشنا كثيرًا عند رؤية هذا البناء، وبمجرد اقترابنا من مدخلِ الجامع، بدأنا نسمع كلماتٍ بغيضة، وكان من السّهل علينا أن نعلم بأننا المقصودون بها، وبعد بضع لحظاتٍ ازدادت سوءًا، وأحاط الأهالي بنا، وبحثت عن نانو فلم أجده، فعرفت أنّه قد هرب لينجو بنفسه، علمًا منه إلى أيّ حدّ قد يصل التعصّب هنا.

لذا فقد ابتعدْنا نحن بدورنا لتجنّب مضايقات الجمهور والحفاظ على أرواحنا. هذا الجامع زاهٍ من الخارج، ومكسوّ بالخزف ذي الأشكال الملونة بالأزرق ومنائر مذهبة،

والمبنى مربّع الشّكل، في نهايته فناءٌ محاط بأروقة، وتختلط جدران رباط الفناء ونهاياتها بجدران المبنى.

أمّا الأرضية فوجدناها مرتفعةً بفضل قبّتين ذهبيتين ضخمتين على شكل الفطر. وفي زواياه الأربعة توجد أربعة منائر، مذهّبة من الأعلى، والمبنى بالكامل جميلٌ وغني، وبه تنوّع دقيق ولطيف، حتّى أنّني عند رؤيته تذكّرت معالم الهند الجميلة.

عدْنا مرّة أخرى إلى الترامواي فوجدناه قد رحل، وعلمنا أنّ التالي سيغادر الكاظمية بعد ساعة، وبما أنّ هناك مؤجّري حمير قرب المحطة، فقد استأجرنا ثلاثة حمير تقلّنا إلى بغداد.

لم نكنْ تُعساء فوق تلك السّرج العريضة ذات السجاد، ومن دون ما ركب، بحيث كانت أرجلُنا متدلّية. تركنا الحمير فورَ وصولنا إلى مدخل الضاحية، وقد كان حرّاس الحيوانات يتبعوننا راكضين بشجاعة، وعند وصولنا النّهر استقلّينا قفة تنقلنا إلى الضّفة الأخرى، وأبحرنا في النّهر حتّى وصلنا إلى أقرب ساحل من فندقنا.

اغتسلنا بسرعة، حيث إنّنا لم يكنْ لدينا ثيابٌ كثيرة، ثمّ ذهبنا لملاقاة السيد (أصفر) وكان ابنه يتحدّث اللّغة الفرنسية. وكان مضيفنا قد دعا أيضًا مسيو لا زار، وهو طبيبٌ نمساوي يعرف القليلَ من لغتنا. أراد أن يكون العشاء أوروبيًّا، وكانت الأطباق تتعاقب بلا عدد، ويصاحبها ما يشبه البوردو، وما يشبه الشمبانيا، والبيرة.

وفي إحدى اللّحظات تذكرنا جميعَ همومنا، وكان علينا أنا وهاملن أن نحافظ على اتّزاننا.

وقد سكب الخادمُ قليلًا من الخمر سهوًا في كأسي الذي بقي فيه بعض البيرة، وعندما اكتشف أنّه أخطأ القنّينة أفرغ محتويات كأسي في زجاجة الخمر،

وبعد لحظات سكب للمدعوّين من هذه الزجاجة. لقد بدأنا العشاء بشوربة خاصّة، ومن بعدها طبقُ لحم مسلوق، ثمّ ثلاثة أطباق لحم مقليّ؛ الأول دجاج، والثاني حجل، والثّالث دراج، ثمّ قدموا لنا الأضلاع والسردين.

أمّا التّحلية فقد قدّموا لكلّ منّا طبقًا كبيرًا من الكريم الأبيض المحلى، الذي كان له مذاقُ الطّحين، وكان موضوعًا أمامنا منذُ بداية الطعام، ثمّ أكلنا الفاكهة التي خلتْ من التّمور، رغم أنّها النّوع الاعتيادي هناك. وقد كنّا نأمل تناول أنواع شهية، ولكنّهم قدّموا لنا هذه الأنواع:

البطيخ، والرقي، والخيار، والرمان، وبضع تفاحات.

وبعد فراغنا من تناول هذه الوجبة الشّهية والكبيرة اتّجهنا إلى الديوان، وهناك قدّموا لنا فناجين القهوة. وقد روى لنا السّيد أصفر أنّه قد خدع بالشهير مسيو دوفورنو الذي استغلّ العديد من الأوروبّيين من آسيا الصغرى وفارس، حيث أقرضه مبلغًا من المال بعد أن أوصاني بذلك القنصل الذي كان استضافه.

٢٧ تشرين الأول (أكتوبر):

في صباح هذا اليوم ذهبنا إلى البريد، حيث إنّنا تعجّبنا لعدم استلامنا أي جوابٍ على البرقيات التي أرسلناها منذ أربعة أيام.

وهناك طريقتان لإرسال الرسائل إلى أوروبا، هما:

البريد الكهربائي، والبريد الإنجليزي، وكلّ منهما يسلكان طريق الصحراء وصولًا إلى هيت الواقعة على نهر الفرات، ثمّ يعبران الصّحراء على جَمل سباق، حتّى يصلان إلى الشّام خلال اثني عشر يومًا.

وهذان البريدان هُما الأسرع، وكلاهما يحملان أخبارًا جديدة بعض الشيء، إلّا أنّ الطّريق الذي يسلكانه خطر؛ لذا لا يحمل البريد كلَّ ما له قيمة، حيث إنّ التخلّص من القرصنة شبهُ مستحيل، كما أنّ الحكومة لم تبذل أيّ جهد لحماية المؤسّسة الأوروبّية، لذا فإنّ الحيوان الذي يحمل كيسَ البرقيات والرسائل، يحمل أيضًا لوازمَ ساعي البريد، ولوازمَ الحيوان أيضًا، أي أكياس طحين كبيرة يأكلها ثمّ يجترّها وهو سائر.

ويوجد أيضًا بريدٌ آخر ينطلقُ من بغداد، ويصعدُ إلى الموصل، ثمّ يتحرّك من خلالِ ديار بكر وموش، حتّى يصل إلى أرضروم وطرابزون، وهذا هو البريد الداخلي والمحلّي.

وهناك أيضًا وسيلةٌ رابعة لنقل الرّسائل، وهي عن طريق الزّوارق الإنجليزية، وتعتبرُ هذه الطّريق الأكثرَ أمانًا عند نقل الأشياء الأكثر قيمة، إلّا أنّ مقدار ضريبتها يبلغ ضعفَ ضريبة الطّريق التركية، حتّى أنّها قد قبلت بتسعيرة المعاهدات البريدية. بعد الغداء كان الطقسُ غيرَ مستقرّ، ولكنّنا خاطرنا وتجوّلنا مرّة أخرى في المدينة وأسواقها، وكذلك ذهبنا لزيارة قنصل فارس الذي علمت أنّه قد أقام فترة طويلة في باريس.

أمّا مسيو جيل المهندس الفرنسي، فهو غيرُ موجود في بغداد في هذا الوقت، وقد أسفنا كثيرًا لهذا. ولكنّنا فرحنا لرؤية مسيو أبيرهيدت، قنصل روسيا، وقد كان في ديوانه مع أحدِ الأطباء، ومع القائم بالشّئون المحلية، وقد نصحنا بالاحتراس في المراحل الأولى من مغادرتنا لبغداد؛ حيث إنّ قبائل شمر والحمويين المتجولين باستمرار يقومون بمهاجمة القوافل؛ لذا لا بدّ من اتخاذ الاحتياطات اللازمة عند السّفر في البلاد.

كما أنّ رؤساء العصابات يقيمون في المدن الحدودية مثل خانقين، وقصر شيرين، وهم على استعدادٍ للعبور من فارس إلى تركيا عند أوّل تحذير. وقد علمت أنّ شقيق القائم بالأعمال قد تجوّل في البلاد التي تكثر فيها هذه القبائل مثل كرمنشاه، والسّليمانية، وكركوك، وتعرّف على أحد رؤسائها، ورغم ذلك لم يكن في مأمنٍ من الأخطار المقبل عليها؛ لذا أعطاه هذا الزعيم غلامًا في الرابعة عشر من عمره تقريبًا، وأعطاه كلمة سرّ، ولم يكن هذا الغلام يسير مع القافلة، وإنّما كان يتسلّق الأطراف العليا، وهكذا لم تقابل هذه القافلة أي مشكلة.

كما نصحنا هؤلاء السّادة في حالة إذا تعرّضنا لهجوم أن نطلق بعض العيارات، حتّى تفرّ العصابة هاربة، هذا في حالة إذا كان عددُ أفرادها قليلًا. ودّعنا مسيو أبيرهيدت الذي سألنا عن الموعد الذي نرغب في أن نراه به في القنصلية، وقد أعجب كثيرًا عندما علم بأنّنا نازلون في فندق أوروبا، وليس في القنصلية، حيث إنّه لا يوجد شيء أكثرُ إزعاجًا لأهالي سينساقون خلف ظنونهم، وسيشكون في نزاهتنا.

وفي المساء لم يكنْ لدينا ما نفعله في بغداد؛ لذا جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وندخن.

٢٨ تشرين الأول (أكتوبر):

استيقظنا في هذه الليلة بفزعٍ بسبب ضوضاء مروّعة، واكتشفنا أن السبب هو أحدُ الجرذان التي تكثُر في الفندق، كما هي في جميع بيوت بغداد، وقد حبس في مصيدة موضوعة فوق إناء، ومن شدّة عذاب الحيوان قام بإيقاع الإناء، ممّا أحدث جلبةً أخرى أشدّ من الجلبة الأولى، وبعد أنِ اطمأننا قمنا بالتّدخين لبعض الوقت

في حالةٍ من الاضطراب، قضينا الصّباح مع عامل يصنع لنا صناديق لتعليق أغراض مجاميع تمكّننا من الحصول عليها في الطريق.

ثمّ ذهبت لأطلب من السّيد أصفر، الذي غالبًا ما يقوم بتدبير أمر هذه الطرود بالنّسبة للجمارك، ثمّ إرسالها حيث إنّ هذه الطّرود تضمّ أغراض مجاميع مهمّة، وسأنزعج كثيرًا إنْ لم تصل إلى فرنسا سالمة. وقد كان ينبغي عليه تكليفُ أحد عملائه لكي يقدّم لنا جميع آنية الخمر الضّرورية، وبالفعل قام لنا بهذه الخدمة، ولكنْ بشكل غير محمود.

فبالرّغم من كونه مسيحيًّا، إلّا أنّه يبقى في النّهاية شخصًا تركيًّا لا يريد خدمة أيّ أوروبّي، وقد بعثنا له الصّناديق. أمّا الصناديق التي كانت تحتوي على الجماجم التي أخذناها من وادي الزاب الكبير، بالإضافة إلى كتابات النمرود، فما حدث لها هو التّالي:

في اليوم التّالي من وصولي إلى بغداد، ذهبت إلى الجمارك، ومعي الصناديق، فأكّد لي الموظّف الأول بعد حصوله على إكرامية أنّها ستمرّ من الجمرك دون أن يفحصها أحد.

ولكنّ رئيسه عندما علم بمدى سخائي مع ذلك الموظّف؛ أوقف الصناديق، محاولًا الحصول على إكراميّة مماثلة. وبعد أن وعدني بأنّ الصناديق ستكون في الغد على ظهر القوارب فقد أعطيته هدية جيدة.

وفي اليوم التّالي جاءني الموظّف، ورغم أنّني لم أتمكن من فهم كلماته الغامضة، إلّا أنّني فهمت في النهاية أنّ الحكومة قد صادرت الصناديق، وطالبت بفتْحها. ثمّ تراجع قائلًا إنّه يمكنني رؤيتها، إذا قدّمت له إكراميّة أخرى، فلم أجد أمامي سوى أنْ أعده بمكافأة جيدة إذا وجدتها على ظهر القارب، وليس قبل ذلك.

وفي غداة هذا اليوم، ذهبتُ إلى الجمرك وأهدرت ساعاتٍ طويلة، وبما أنني لم أكنْ أعلم لغتهم فقد أحرجت كثيرًا، واستمرّ هذا الوضع عدّة أيّام بعدها. وفي يوم سفري جاءني موظّف الجمرك الذي كنتُ قد وعدته بمكافأة جيدة إذا وجدت الصّناديق على ظهر القارب في النّهر، وأخبرني بأنّ الصناديق أصبحت على الرّصيف، وجاهزة للتحميل.

ذهبتُ للتأكّد من صحّة كلامه، وبالفعل وجدتها صناديقي، وكنت على وشك منحه تلك المكافأة حين فكّرت في فتحها والتأكّد من محتوياتها، وحينها رأيت الموظّف يحاول الهرب، فأمسكته من كتفِه، فارتجف في يدي مثل الورقة، وعندما فتحتُ الصّناديق وجدت ما بداخلها قد استبدلَ بقطعة جبسية.

وقد كدتُ أقتلُ هذا الموظف لولا أنّ هاملن قد أمسكني ومنعني، لم يكن بيدي أيّ حيلة، فلن أستطيع المطالبة بشيء، وأيّ محاولة منّي بذلك قد توقعني في مشاكل لا حصرَ لها، وفي النّهاية لن أحصل على شيء. وقد سبق أنْ نصحنا القنصل وقال ألّا نعتمد عليه، فلم يكنْ بيدنا سوى الاستسلام، وقال هاملن: «لقد أراد الله ذلك، فلا تحاول أن تتعارك».

لقد ذهب نانو للاهتمام بإعدادِ القافلة، بينما قمنا نحن باستقبال قنصل روسيا وترجمانه، وقد كان ترجمانه مندوبًا في خدمة شاه فارس أثناء إقامته في بغداد، وكان مكلّفًا بشكل خاصّ ببريده التلغرافي.

وعندما كان يهمّ بمغادرة بغداد، قدّم للشاه قائمة حساب البريد، ولكنه رفض دفعها، وبعد الإصرار الكبير علّق بأنّ الصناديق التي كانت قد تحركت قبله، يجب أنْ ترافق حتّى الحدود، وهناك سيدفع له الحساب، فوضع المندوب منعًا على الأمتعة، بينما ألحّ الشّاه على الدفع داخل أراضيه، فقال المندوب: «إنّه لمِن المستحيل

يا صاحب الجلالة النزولُ عند رغبتكم، فأنتم إنْ رفضتم الدفع إلّا في الجهة الثانية من الحدود لن يكون لديّ أيّ وسيلة لإرغامكم على ذلك».

فأجاب شاه فارس قائلًا: «ها هو ذا شيك على حساب طهران».

فأجاب المندوب: «لا أتمكّن من قبوله».

وأخيرًا قبِلَ الشّاه أن يعطيه شيكًا على حساب بغداد، وعندما قدم المندوب الشّيك للبائع الفارسي الذي كان مكتوبًا باسمِه، رفض الدّفع قائلًا: «لقد قدّمت الكثير من المال للشّاه حتّى الآن، وقد أتعبني أمر الدّفع باستمرار، وأنا غير مطلوب له بشيء».

وعندها ذهب التّرجمان إلى الوالي، وشكا البائع، فأمر بجلب البائع الذي كان يرفضُ الدّفع، وبعد تأمّل طويل، جاء البائع في اليوم التّالي حاملًا الثلاثمائة ليرة تركيّة، مفضّلًا خسارة هذا المبلغ على الإصابة بسخط الشّاه، حيث يبدو أنّ هذا الملك قد اعتادَ على استغلال الأثرياء المقيمين خارج بلاده، وإن لم ينفذوا الخدمة المطلوبة لن يجرؤوا- فيما بعد- على العودة إلى بلادهم خشية تعرّضهم للقتل من قبَلِ الشّاه عند وصولهم البلد، وقد علمت أنّ الملك لا يسمح لأحد بزيارته سوى لمن يقدّم له كيسًا جيدًا من الفضة.

٢٩ تشرين الأول (أكتوبر):

كنّا ننوي مواصلة رحلتنا اليوم، ولكنّ أصحاب البغال الذي كان يبدو بأنّه متّفق معهم على كلّ شيء، بدؤوا يطالبون بأشياء كثيرة في اللّحظات الأخيرة، ويثيرون الصّعوبات.

فقد طلبوا قبل كلّ شيء حصانًا لحمل رحالِ الرّجال الذين سيحملون سرجنا، وطبعًا على نفقتنا الخاصّة، فهم لن يستطيعوا حملَ شيء عند عودتهم، لذا سمحت لهم بالحصول عليه.

ثمّ جاءوا مرّة أخرى يطالبون بليرةٍ أكثر من المبلغ المتّفق عليه، بل وتدفع مقدّمًا، ثمّ طالبوا بليرتين فقبلتُ بذلك أيضًا.

ولكنّهم جاءوا أخيرًا مطالبين بزيادة سعر كلّ حصان، حيث كان المتفق عليه ثلاثين قرانًا، ولكنهم طالبوا بثلاثين بيشليك، أي زيادة تبلغ ثلاثة وثلاثين بالمائة، لذا فقد رفضت المساومةَ هذه المرّة، وأخذت المال الذي دفعته مسبقًا، وأرسلت نانو بسرعة إلى السّوق في محاولة لإيجاد أصحابِ بغال آخرين قبل أن يتمكّن هؤلاء من إيصال الخبر إلى رفاقهم بصورةٍ سيئة.

وخلالَ هذا الوقت تناولنا الغداء، حتّى أقبل عليها نانو بأخبار سارّة، ثمّ أرسلته إلى الوالي طالبًا منه أن يمنحنا بعضَ أفراد الشرطة لمرافقتنا حتّى الحدود، ولكنه عاد هذه المرّة بأخبار سيئة، حيث رفض الوالي طلبنا قائلًا:

«الطريقُ خطرة لأنّها مشحونة بالعصابات، والحمويين في انتفاضة، ومرافقة هؤلاء السّادة ستجعلني أنا المسئول عن أمنهم، فليسلكوا طريقًا آخر». أي طريق؟

لا يمكننا المرورُ من خلال البصرة وبوشهر وشيراز، لأنّها خارج مسار رحلتنا بكثير؛ لذا قرّرنا العمل كما نريد، ورغم أنّ الوالي رفض إعطاءنا جنودًا، إلّا أننا سنسافر وحدنا؛ بل وفي نفس الطّريق الذي عزمنا اتخاذه. فهناك احتمال بأن يكون كلّ ما ذكره الوالي مجرّدَ كذب، وأنّه يريد فقط عرقلتنا ومنعنا من مواصلة رحلتنا وإعاقة مشاريعنا.

ونحنُ لا نحتاج سوى ثلاثة أيام للوصول إلى الحدود الفارسية، وبعدها سنصبح في أمان، حيث نكون حينَها قد غادرنا تركيا أخيرًا، فهي أكثرُ فسادًا وأخطاء وتعاسة من فارس بألف مرّة.

ذهبنا لرؤية السيد خوري، ترجمان القنصلية، وقصصنا عليه مشاكلنا وقرارنا، وقد وافقنا مبدئيًّا بأنّه لا يجب أن نصدّق كلّ ما يقال، وخلال زيارتنا له أرانا مجموعة رائعةً من الرّماح والتروس، ومختلف الأسلحة المصنوعة في زنزيبار، ويأسف لمكانه السّابق. وعند عودتنا إلى الفندق وجدنا كلّ شيء جاهزًا للسفر، فصفينا حسابنا مع صاحب الفندق ديمتري فيروز.

وفي النّهاية فرغم أنّ فندقه غيرُ محترم وغيرُ مريح، إلّا أنّه رجل طيب، وقد استقبلنا جيدًا. وبعد العشاء جاء السيد خوري لزيارتنا من باب الصداقة، وبما أن أمتعتنا كلّها جاهزة، فقد رقدنا في انتظار ساعةِ الرحيل.

الفصلُ السّادس

من بغداد إلى كرمنشاه

محتوياتُ هذا الفصل:

الرّحيل عن بغداد، الصّحراء، السّراب، خان بني سعد، ديالى، بعقوبة، المقاهي والخانات، السّفر من بعقوبة، شيراباد، نانو يعود إلى بغداد، عائلة فارسية في سفر، السّفر في الساعة الواحدة ليلًا، السير ليلًا، قزلبات، أحاديث تركية، القائمقام، فزع خاطئ، خانقين، ضفافُ النهر، الدكتور ساب، الحدودُ الفارسية، قوافل الموتى، قصر شيرين، أسطورةُ شيرين وفرهاد، شيرينبول، أكراد، قوافل كبيرة، أبواب زاجروس، كيرند، هارون آباد، مسيرة تشاد زيفار، ماهيدشت.

من ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) إلى ٥ تشرين الثاني (نوفمبر)

كنتُ قد طلبتُ من (نانو) أن يكون موجودًا في الفندق في الساعة الثالثة صباحًا، حيث كان علينا الذّهاب في هذا الوقت برفقة قافلة أخرى، وقد أصبحت السّاعة الخامسة والنصف ولم يصلْ بعد. وأصحابُ البغال جاهزون منذ فترة طويلة، لذا اضطررت أنْ أبعث في طلبه، ويبدو أنّ هناك شخصًا آخر يحب الراحة، ويريد السّفر بتروٍّ.

إنّني متعجّب منه فقد بذل قصارى جهده في الأيّام الماضية لإقناعنا بالاستغناء عن يوفان الأمين، بحجّة أنّه لن يتمكّن من قطع الطريق، ولكنني أظنّ أنّه انزعج من نزاهته وشرفه الكبير؛ لذا أراد التخلّص منه. في السّاعة السادسة بدأنا بتحميل الجياد، وهو أمرٌ صعب نسبةً إلى الطريق الصّعب الذي سنسلكه، كما أنّ نانو قد أثقل نفسه بالأمتعة بشكلٍ غبي، لدرجة أنّه يحتاج وحده لبغلٍ يحمل أغراضه، إلى جانب البغل الخاصّ به، فهو لم يقبل بالركب الأوروبي الذي لنا، وفضّل صنْع محملٍ خاصّ له من فرش وركب فوقه، إنّني حقًّا لا أعلم كيف سيحافظ على هذا الحملِ الكبير؟

وأخيرًا في الساعة السّابعة تحرّكت القافلة، وقد كان السيد خوري كريمًا وطيبًا، فقد أرسل إلينا قواصين من القنصلية لمرافقتنا وتسهيل حركتها في الأسواق.

اتّبعنا طريق الأسواق العريض الذي كنّا قد سلكناه عند وصولنا، ومررنا أمام معسكرِ المشاة، ثمّ فناء ثكنةِ المدفعية، وبدلًا من الانْحراف تجاه اليسار، انحرفنا نحو النّهر إلى اليمين، وهذا الطريق أكثرُ اتساعًا، ومليء بدكاكين الباعة، حتّى وصلنا باب المدينة، الذي يحرسه بضعة جنود.

وهناك تركنا القواصين، ودخلنا في الصحراء، وكان هذا السّهل ممتدًّا في كلّ اتّجاه على امتداد البصر. لم يكنْ علينا سوى الاتّجاه باستقامة، متبعين أعمدة التّلغراف التي تضيع صفوفها الجامدة في الأفق البعيدة. وبعد حوالي ساعة لاحظنا وجودَ شرطي خلفنا، لا بدّ أنّه كان يتبعنا ويتجسّس علينا، حيث إنّه لا بدّ أن يكون الوالي غيرَ راضٍ عن قرارنا، خاصّة وأنّنا خالفنا رأيه، ولم نعرْه اهتمامًا، تجاوزناه ونحن نسافر في ولايته.

بعدَ مسيرة ثلاث ساعات، وعلى بُعد خمسة عشر أو ستة عشر كيلومترًا من بغداد صادفنا خانًا قديمًا متهالكًا، يخيّم فيه الرّعاة، وبالقرب منه توجد قناة سقي يعمل فيها بعضُ الأعراب، يبلغ عرضُها مترين، أمّا عمقها فيبلغ حوالي عشرين سنتيمترًا، ويبدو أنّها تختفي في الرّمال يمينًا وشمالًا. أمّا الباقي فهو مجرد صحراء جافة، كما شاهدنا آثارَ السّراب بنوع غريب جدًّا، فعلى بعد مائتي متر إلى الأمام، تظن بأنك تشاهد بحيرة، وأحيانًا بحرًا أو جزر، أمّا خلفنا فكانت بغداد تبدو وكأنّها وسط بحيرة.

وتعطي المياه صورةً معكوسة، بينما يستمرّ الطّريق الرملي المملّ، ومن وقت إلى آخر نرى سربَ غربان يتشاجرون ويتعاركون حول الجيف وعظام الحيوانات الميتة في الطريق.

وفي السّاعة الواحدة بعد الظّهر وصلنا إلى خان بني سعد، وهو خان كبيرًا، كثيرًا ما تقضي القوافلُ الليل فيه، فهو يعتبر منتصف الطريق بين بغداد وبعقوبة.

ومن حوله يوجد بعضُ باعة الرقي، والشاي، والقهوة، ولكننا كنّا نريد الوصول إلى بعقوبة في هذه الليلة؛ لذا لم نسترح سوى نصف ساعة فقط. كانت القافلة التي أردْنا اللّحاق بها في الصباح قد توقفت هناك، واتّخذت استعداداتها لقضاء الليل،

وهي قافلة كبيرة العدد، حيث إنّها مكوّنة من أكثر من مائة حصان (بغل). كانوا قد وضعوا أمتعتَهم جميعها في المنتصف، وجيادهم ملتفّة حولها بشكل مربّع، ووجوهها لداخل المربع، وأمامها كوم العلف وأكياس الشعير.

وقد لاحظنا مدى بطء القوافلِ الكبيرة كواسطة للنّقل، ولكن رغم أن أصحاب القوافل بطيئون وغير متعجّلين، إلّا أنّ مهمّتهم قاسية وصعبة، حيث إنّه على الرجل الواحد أنْ يسهر لحراسة عشرة أو اثني عشر حصانًا، وأن يقودها.

وقد شاهدت قوافل مكوّنة من أربعين جملًا يقودها ثلاثة رجال، وعلى هؤلاء الرّجال أن ينزلوا الأحمال كلّها عند وصولهم عند أوّل مرحلة، وأن يطعموها، ولا يفكّروا في أنفسهم سوى في آخر الوقت.

وطوال النهار يسيرون تحت أشعة الشّمس اللافحة تزيد عن خمسين درجة، حتّى أنّهم يسيرون بنفس الثياب، سواء أمطرت السّماء أو أثلجت أو تجمدت، ولا يأكلون سوى الرقي، ويشربون الشّاي. كان الطقس في هذه الليلة لطيفًا جدًّا، رغم حرارته، اتّجهنا نحو الشّمال الشرقي، وصادفنا ريح الشّمال التي ترطبنا وتطرد الغبار من جهةٍ واحدة دون إزعاج لمؤخرة القافلة.

لا يمكن أن أتخيّل كيف بوسع المرء أن يخطأ في تقدير المسافات، فنحن منذ ساعة، أي منذ تركنا خانَ بني سعد، كنّا نلاحظ بعقوبة من بعيد، فتخيّلنا أنّنا سنصل إليها بعد مسيرة ثلاث ساعات لا أكثر، ولكنّنا لم نصل إلى مدخل القرية سوى في السّاعة السابعة. والمسافة بين بغداد وبعقوبة يجب أن تكون حوالي ستين أو خمسة وستين كيلومترًا على الأقل.

قبلَ وصولنا إلى بعقوبة، سرْنا بمحاذاة نهر ديالى فترةً من الزمن، وهو أحد روافد نهر دجلة، ويسقي واحةَ نخيل ورمان لها شهرة كبيرة، وعلى الضفة المقابلة للضّفة

التي نسير عليها تمتدّ بساتين. وأثناء النهار صادفنا قوافل كبيرة مكونة من الحمير المحمّلة بثمار الواحة، وقد كانت متجهة إلى بغداد.

وبعدَ المسيرة الطّويلة التي قطعناها خلال الصّحراء الجرداء، كان لا بدّ أن نشعر بسعادةٍ غامرة عند رؤية هذه المروج الخضراء، وفي هذا الوقت من العام لا يحتوي النهرُ على الكثير من الماء؛ لذا يبدو أنّ الضّفاف المرتفعة عموديًّا تحمل آثارَ انهيارات، كما أنّها مشقوقة بتصدّعات عميقة قد حفرتها السّيول الجارفة والمياه النّاتجة عن انصهار الجليد في الربيع.

وعند وصولنا إلى جسر القوارب التي يجب أنْ نستخدمه لعبور النهر، كان الظّلام قد حلّ، وفي الطّرف الثّاني وجدنا بيتًا صغيرًا يجب أن نعبر أمامه حتّى نستكملَ طريقنا، وهو بيتُ الجمارك، وقد رفض الموظّف الموجود به ثلاث دفعات عملة نقود صالحة، وحاول بدلًا من ذلك أنْ يردّ لنا قطعًا غير صالحة. اتبعنا طريقًا محصورًا ضمن جدران من الطّين تحيط بالبساتين، كان ضوءُ القمر الجميل يتسلّل من بيت النّخيل فيعطي المشهد مسحةً خاصّة.

وأخيرًا وصلنا إلى المدينة، ودخلنا الأسواقَ على وقع الأجراس المدلّاة من الاثنين والثّلاثين جوادًا وبغلًا، يتوزّعون على جميع أطراف القافلة. رغم أصوات الضّوضاء المزعجة، إلّا أنّهم يحبّون ذلك، بل ويشعرون بالنّشوة وسط هذه الهمهمة المملّة.

لقد كانت أسواقُ بعقوبة أضخم ممّا كنت أتصوّر، حيث إنّ لها مكانة جيدة، وتضمّ حوالي أربعة أو خمسة آلافِ فرد. كانت معظم الدّكاكين مغلقة، ولكن يوجد بعضُ باعة للحبوب الجرزات والفواكه، ويُضاء لهم بشموع معروفة موضوعة في زجاج ملوّن أو مصابيح بدائية، يعرضون بضائعهم على المارين المتأخرين.

ورأينًا أيضًا مقاهي واسعة مملوءة بروّاد يتمتّعون بالأنس (الكيف) بكلّ هدوء، مدخّنين النّرجيلة، وهم مرتخون على دواوين وحصران، ومتقاربون من بعضهم البعض بحيث يصعب المرورُ فيما بينهم، وتوجد القليلُ من المصابيح لتضيء لهم. كان هؤلاء الأشخاص جامدين، كاللّعب البيضاء، صامتين، وبعضهم يتحدّث بصوت خافتٍ وسط سحب الدّخان، هذه هي الصّورة الحقيقية للحياة الشرقية. وكانوا جميعًا ينظرون إلينا، ولكن دونَ إزعاج، مثل الثّيران التي تقف جامدةً في الرّيف لتنظر إلى المارّة النّادرين، واتبعنا بعض الأولاد.

تجوّلنا لبعض الوقت في هذا الوسط الغريب، وطرقنا العديد من أبواب الخانات حتّى عثرنا على خانٍ يمكنه استقبالنا، حيث كان الأوّل مليئًا، ولا مكان به، والثاني لا يستقبل مسيحيّين. وأخيرًا عثرنا على خان يمكنه استقبالنا، ويمكننا استئجار مكان واسع ومريح في الطّابق الأول- الأعلى- منه. وقد كان المكان واسعًا ومحاطًا بسياجٍ خشبٍ، ويطلّ على الطريق، ويمكن غلقُ بابه بعض الشيء، وعلى أرضه بساطٌ مقبول.

كان الحارسُ شخصًا طيبًا، فقد ساعدنا في إنزال حمول جيادنا، وإيصال أمتعتنا إلى الأعلى، حيث إنّه من الخطر بقاؤها بالأسفل. ثمّ ذهب لإيقاظ بائع القهوة- قهوجي- القريب لإحضار السماور، وأعدّ لنا الشّاي بينما طهي يوفان دجاجة مع البطاطس للعشاء، وقد استطاع الحصول عليه مقابل بضع رمانات.

وبعد قليل جاءنا أحدُهم مرتديًا ملاءة ذات أزرار مذهبة، طالبًا بعض المعلومات من قبل القائمقام، وذلك فيما يخصّ المسافرين الأوروبيّين الذين رأوهما يمرّان في السوق.

وبعدَ حصوله على المعلومات المطلوبة، حاول التدخّل في شئوننا، لكنني أخذتُه إلى الباب وأبعدته، ثمّ جلستُ للاهتمام بهاملن الذي يعاني من آلام في رجله، حيث إنّ عقبَ قدميه متورّم جدًّا، وبالكاد يمكنه السّير، ونحن لا نعلمً هل هذا بسبب لدغه؟ أم هو جهد زائد؟

ولكنّنا جرّبنا تدليكها بالأمس، ولم نستفدْ؛ لذا سنجرّب اللزقة. بعد قليل عاد الرجلُ ذو الأزرار الذهبية، قائلًا: إنّ القائمقام يريد رؤيتنا، ورؤية جوازاتنا. فأرسلت له نانو، وأبلغته أنْ يقول له إنّني لن أكلّف نفسي وأذهب له، وإن كان يريد رؤيتنا فليأتِ ويتحدّث إلينا.

وبعدَ العشاء رقدنا وسطَ الضّوضاء المزعجة التي تحدِثُها آلاف الأجراس المعلّقة في أعناق الحيوانات المربوطة في الفناء.

٣١ تشرين الأول (أكتوبر):

علينا أن نقطع اليومَ وغدًا المرحلتين الأشدّ خطورة في طريق بغداد، وكرمنشاه، حيث إنّه غالبًا ما تمارس قبائل شمر والحمويّين القرصنة هنا، فيما بين بعقوبة والحدود التركية، ويسرقون المتأخّرين عن القوافل؛ لذا فقد أوصيت نانو جيدًا الذي كان نائمًا في إحدى غرف الطّابق الأرضي مع يوفان؛ أن يوقظنا حتّى نتمكن من مواصلة المسير برفقة التّجار الفرس الذين كانوا يقضون ليلتهم في الطابق السفلي من الخان.

ولكنّه التفّ بالأغطية والملاءات والمخدّات التي كان يحملها، ولم يستيقظ أبدًا، وأنا أيضًا لم أستيقظْ سوى عند سماع الجلبة التي أحدثها التجّار عند مغادرتهم؛ لذا نهضت مسرعًا، ونزلت، ولكنّنا سنحتاج إلى ساعة على الأقلّ لتجهيز القافلة،

وكان الظّلام مازال مخيّمًا، ولا يكفينا ضوءُ القمر والنجوم الخافت؛ لذا كان علينا أن نقوم بكلّ شيء ونحن نتحسّس.

أمّا هاملن فكان متألمًا للغاية، وبالكاد يهتمّ بنفسه، لذا فقد تركنا الخان في السّاعة الرابعة، وتحرّكنا وحدنا. كان الليلُ رائعًا كالأمس، واتّبعنا الجدران الطينية المُحيطة ببساتين بعقوبة لمدّة ربع ساعة، ولكن في الطّرف الآخر من المدينة، ثمّ دخلنا في الصّحراء مرّة أخرى، واتبعنا خطوات القوافل السّابقة، وكان الصّباح باردًا، وسرْنا لبعض الوقت ماسكين الأعنّة.

وفي السّاعة العاشرة تقريبًا، وبعد اجتياز أطلال كاراستيل، صادفنا القوافل الكبيرة محمّلة بالطنافس وأكياس القطن وغيرها، وشاهدنا في البعيد بعض الواحات وبدتِ الأرض مزروعة، وهناك أشخاصٌ يعملون في الحقول بالمحراث الخشن المتكوّن من كلاب خشبي واحد.

ثمّ أتبعنا قناة ذات أطرافٍ مرتفعة الانحدار، ومغطّاة بالأعشاب والعوسج، وهناك بعضُ السّواقي العميقة التي تنقل المياه إلى الحقول، ولكنّها تقطع الطرقات باستمرار بواسطة المستنقعات الوحلية التي تكونها.

إنّ عبور هذه المستنقعات خطرٌ للغاية، حيث يمكن الوقوع في أحد حفرها، وهذا بالفعل ما حدث لأحدِ جياد الأحمال. وفي الأفق لمحنا شيراباد التي نبغي التوقّف بها هذا المساء، وبدأ الطّريق ينحرف بشدّة، وتشكّل الأرض وديانًا طويلة غيرَ بادية للعيان إلّا قليلًا.

والأعمدة التلغرافية لا تتبع الخطّ المستقيم، وأعتقد أنّ هذا بسبب طبيعة الأرض؛ حيث إنّ مظهرها المائل إلى السّواد يحملني على الافتراض بأنها تتحوّل في الربيع بعد موسم الأمطار إلى أهوار خطيرة. ولمحنا في الأفق البعيدة سلسلة جبال حميرين التي تقطع نهر دجلة بالقرب من قلعة شرقاط.

وكما توقّعنا تمامًا، فقد سقط نانو من فوق بغلته، حيث كان مستلقيًا فوق أحد مطارحه، وفوق أكياس وأغطية بحيث لم يكن بوسْعه المحافظة على توازنه إلّا بجعل دابّته تزحف بدلًا من أن تسير. ولكنْ لسوء حظّه ظهرت حبّة كبيرة خرجت فجأة من حزمة عوسج أمام قدمي بغلته تقريبًا، أرعبت الحيوان، وجعلته يهرول مسرعًا، فسقط نانو بأكياسه ورحاله ومطارحه على الأرض، بينما أسرع أصحابُ البغال إلى الحيوان الهائج، وأسرعتُ أنا لمساعدة نانو المسكين، فقد سقط سقطة مؤذية، وأصابته قبضة المسدّس في جنبه، فقال إنّه متألم جدًّا، فواصلنا طريقنا، وبعد أكثر من ساعة أصبح الطّقسُ حارًّا جدًّا، ورغبنا بشدة في الوصول.

وأخيرًا وصلنا شيراباد التي كانت فيما مضى مُحاطة ببساتين ساحرة، ولكنها الآن غيرُ موجودة بسبب موجات الجراد. عند وصولنا كانت الخانات ممتلئة، حيث إنّ جميع التجّار الذين غادروا قبلنا وصلوا إليها قبلنا، ونزلوا بها، فلم نجد أي مكان سوى في خانٍ متوسّط الحال، وحططنا به رحالنا. ومنذ وصولنا تمدّد هاملن، أمّا نانو فظلّ يبكي كطفلٍ صغير، حيث إنّه لم يكن لديه أية قابلية على المقاومة.

كان بجوارنا تجّارٌ من اليهود والعرب والأتراك والفرس، ويبدو أن معظمهم ميْسورو الحال، فهُم يجلسون على طنافس جميلة، ويدخّنون بالغلايين الغالية، ويشربون الكيف، متطلّعين إلينا بعين الرّضا والرخاء، وقد كان بعضهم متزين بخواتم ثمينة، ورغم ذلك فإنّهم ليسوا متكبّرين على مرؤوسيهم والمساكين، بل كانوا يعاملون الأشخاصَ ذوي الملابس البالية كما يعاملون الأثرياء باحترام وتقدير.

وقد جلسَ بجوارنا رجلٌ يهودي، قد صبغ لحيتَه وشعره وأجفانه بالحناء بلون أحمرَ جميل، ولكنّني لاحظت نموَّ بعض الشعيرات البيضاء في لحيته، وقد كان مسافرًا مع خادمه وزوجته التي حاولت بجهدٍ إخفاءَ نفسها عن الأنظار، ولكنني رأيتها وهي شابّة جميلة جدًّا ذات وجهٍ برونزي، إنّها ذات

ابتسامة وحيوية، قضت يومها كلّه ووجهُها باتجاه الحائط، وكانت تدخّن النرجيلة وتقوم بإعداد الطعام لسيدها، أمّا نانو فكان متألمًا والزمامُ لا يناسبه، وكان يتقلّب على السرير وهو يئنّ.

وفي السّاعة الخامسة وجدته يقول إنّه يريد العودة إلى بغداد بدلًا من استكمال السّفر، ورغم أنّ ذلك أزعجني إلّا أنني أردت أنْ أغامر وأجرّب القيام بالرحلة وحدي دون مساعدة مترجم. وبالفعل أعطيت نانو حسابه، فقد كان يعمل بجهدٍ فيما يخصّ بيع بقايا الكلك، رغم أنّه لم يقمْ بأيّ شيء آخر ذات قيمة.

إنّ تفكيري فيما قام به نانو يذكّرني بيوفان الذي اشترى لنا دجاجتين بأربعة قروش (١٥ , ٠ من الفرنك) من صبي، وعندما علم هنا الصّغير أنّ هاتين الدجاجتين من أجل أوروبيّين، أراد أن يرفع سعرهما ويبيعنا إيّاهما بستة قروش.

١ تشرين الثاني (نوفمبر):

إنّ هذا اليوم يوافق يومَ عيد القدّيسين في الغرب، ولكنني هنا أمر بيوم قاسٍ ومتعِب، فقد رحل نانو بالأمس، ولم نتمكّن من النّوم منذ التاسعة والنصف مساءً، فقد تعرّضنا لهجوم من قِبَل عصابة قططٍ جاءت لسرقة بعض الطعام باحثةً عنه تحت أسرّتنا وخيمناً، فأشاعت الفوضى في أمتعتنا.

كنّا قد اتّفقنا على البدء بتقديم الشّعير للجياد في منتصف الليل، وعلى أنْ نغادر في السّاعة الواحدة. ولكنّ الأدلّاء كانوا مازالوا يغطّون في نوم عميق، ورغم أنّني حاولت إيقاظهم إلّا أنّهم لم يستيقظوا، أو ربما كانوا يتجاهلون ندائي عليهم، أمّا يوفان فكان يحاول أنْ يكون صاحبَ إرادة، ولكنه لم يفهمْ هو الآخر.

مرّت ساعة إلّا الربع، وأنا ممسكٌ بفانوس صغير، وأقلب القاموس الفرنسي التّركي محاولًا أن أركبَ بعض الكلمات التي قد أحتاج إليها. إنّ القيام بهذا الأمر في مثل هذه السّاعة، وبعد يومين من السّفر على ظهور الجياد؛ أمرٌ صعب جدًّا.

فهِمَني يوفان أخيرًا، وفي السّاعة الواحدة تمكّنت من إيقاظ أدلاء القافلة، فاستيقظوا وقدّموا الشّعير للحيوانات، وفي السّاعة الثانية لم نعدْ نسمع صوت الاجترار في الخيام، وكنّا مستعدّين تمامًا للرّحيل، وفجأة وكأنهم سمعوا صوت الإيقاع، فقد نهض الجميعُ مِن غرفهم، وبدؤوا بأعداد الحيوانات، وفي خلال عشر دقائق كان الجميعُ جاهزين، وتغيّر مشهد الخيام تمامًا ففناؤه الهادئ الذي لم نكن نسمعُ به سوى صوت اجترار الحيوانات أصبح الآن مليئًا بالحيوية والضوضاء التي تسبق السّفر.

إنّ هذه الليلة ليست صافيةً كالليالي السابقة، لدرجة أنّنا اضطررنا لربط الجياد وحمل المصابيح، ورغم أنّنا بدأنا في التّجهيز قبل الآخرين، إلّا أنّنا لم نكن أولَ المستعدّين للسّفر، ولكنّنا سبقنا القوافل لتجنّب الغبار. سرنا في صحراء جرداء ولم نتحدّث كثيرًا، حيث كان الظلامُ دامسًا، ولا يوجد غيرُ صوت أقدام الحيوانات وبعض الهمسات الخافتة.

كان الطقسُ باردًا فنزلتُ عن الجياد وسرتُ على قدمي لأدفئ نفسي، ولكنني شعرتُ بنعاس شديد؛ لذا ركبتُ الحصان مرّة أخرى، كنت أعلم أنّي بعد المرور بهذه اللّيلة الشاقة، التي لم أنمْ فيها، سوف أرتمي منهمكًا. واستمرّت حالتي هكذا لمدّة ثلاث ساعات، حتّى بدأت الشّمس تشرق، فاختفى خمولي، ونبّهني الضوء، وذهب منّي الإرهاق.

في السّاعة السابعة اجتزنا جبلَ حمرين، وهو عبارة عن هضاب قليلة الأهمية، ذات جفافٍ وعزلة خاصّين، ثمّ مررنا بسهلٍ صخري طويل، ومن بعده حقول قليلة الزّرع، وأخيرًا وصلنا قرية قزلربات، يقطعٌ هذه القرية جدولٌ يمتدّ في الصحراء ثمّ يختفي، سرْنا بمحاذاة هذا الجدول حتّى دخلنا من خلال بابٍ حجري وقائم وسط

سوقٍ طوله مائة مترٍ على شكل نصف دائرة، وخلال خمس دقائق وصلنا إلى الطّرف الثاني من القرية، حيث يوجد الخان.

في السّاعة التّاسعة والنصف فضّلنا مواصلة المسير، بدلًا من التسكّع في هذه الأكواخ الكبيرة، ولكن الأدلّاء لم يوافقونا الرّأي، وقالو: «إنّ الطّريقَ سيئ وخطر».

بحثتُ عن شخص يتحدّث لغةً أوروبية في القرية، فقادوني إلى مكتب التلغراف بينما بقي هاملن ليحرس باقي القافلة. عند وصولي إلى مكتب التلغراف اكتشفتُ أن التّلغرافي لا يعرف مِن لغتنا سوى أحرف الألفباء؛ لذا استعنت بالقاموس وسألته بضعةَ أسئلة، فأجابني بنعم أو لا، ونتيجة الحوار أنّ الطريق ليس آمن، ولكنه سيقودُني إلى القائمقام الذي سيزوّدني بالجنود.

ذهبتُ إلى البيت الطّيني للقائمقام سيرًا على الأقدام مع تلميذ فولتا، وجدناه أمام قنطرةِ باب منزله التي اتّخذها كديوان له، ويحيط به جميع الوجهاء، البالغون خمسة عشرَ شخصًا تقريبًا.

وأعتقدُ أنّ فرينيه لم تترْها الدّهشة وهي أمام المحفل في أثينا، كما شعرت أنا بالذّهول الحياء، عندما وصلت، وراحوا يتحسّسونني، ويلمسونني، وبعضهم يتطلّع إلى قبّعتي، والآخرون إلى حذائي- البوت- وآخرون إلى بندقيتي. أمّا القائمقام فقد رجاني للجلوس، وطلب تقديم القهوة لي، وقد ازداد الأمرُ هزليّة، عندما أمسكت بالقاموس، وبدأت أشرحُ بتحرّكات شديدة الهزليّة أنّ ترجماني قد بقي في الطريق، وأنّني ذاهب إلى فارس، وأنّني أريد بعض الجنود لمرافقتي، حيث إنّ الطريق غير آمن. وللإجابة على طلبي بحثَ التلغرافي عن كلمةٍ تركية في القاموس، وأشار عليه، فعلمتُ أنّي لن أحصل على شرطين، ولكنّني سأحصل على جنود حقيقيّين.

وبعدَ ذلك شكرتهم، وسمحت لهم بتحسّسي والتطلّع إليّ لبعض الوقت، ثمّ عرضتُ عليهم سلاحي- وينجستر- الذي أذهل جميعَ الحضور بآليّته وإطلاقته، ثمّ وصل صاحبُ القافلة- الكرواني- خشية أنْ أشكوه، ووجهُه يتبسم، وقبّل قدمي وركبتي. وعندما رآني القائمقام متعجّلًا، جاء معي إلى مكتب البريد، ليعجل أمر الجنود.

وفي السّاعة الحادية عشرة غادرنا القرية، تاركين خلفنا الجدولَ البارد، وظلال النّخيل، واستقبلنا الشّمس الحارقة، والأرض التي ترسل إلى وجوهنا وأيدينا حرارة ملتهبة. الجياد لم تتناولِ الشّعير، ونحن أيضًا لم نتناولْ طعامنا منذ الساعة الواحدة صباحًا، ولم نشربْ سوى فنجان قهوة، فاشتريت بعضَ الرقي للرجال، وتغدينا على ظهور الجياد، ثلاث قطعٍ من حلوي المنّ، وكأسي عرق.

وبعدَ مسيرة ساعتين في رمال السّهل، وصلنا إلى أقدام لوتي باخجه، وهي عبارة عن أرض مستويةٍ واسعة وسطُها محفور بواد، ممّا يدلّ على أنّ هناك تشققًا قد حدثَ في النّاحية الجنوبية الشّرقية بسبب مياه الأمطار التي تمضي لتصبّ في كاني كند.

عند وصولنا إلى أعالي أولي الذّرى، شاهدنا بكلّ اندهاش امتدادَ هذا السهل المتأجّج، وفي منتصف الطّريق التقينا بفارسين جالسيْن على حافّة الطريق يرافقان قافلة حمير.

وقد أخبرونا أنّهم لاحظوا رجلًا فارسيًّا وخمسة مشاة مسلّحين يتجولون في حافة مدخل المضيق الذي علينا عبوره، لذا جلسا ينتظران مرورَ أيّة قافلة، حتّى لا يضطرّا لمواجهة هؤلاء الأشخاص وحدهم في ممرّ صخور وآكام صالحة للكمائن.

وعند اقترابنا من الوصول إلى حافّة التّل، رأينا على بعد خمسمائة مترٍ رجلًا فارسًا يطوف متنحّيًا، ويبدو أنّه يريد السّرقة، فقام الجنود المرافقون لنا بحشو بنادقهم

وهُرِعوا للّحاق به، بينما استلمتُ أنا قيادة القافلة، وأخيرًا اكتشفنا أنّه شرطي يقوم بحراسة قافلة قادمةٍ من الجهة المعاكسة، وكان يتقدّمها للاطمئنان عمّا في الأعالي المحاذية للطّريق، وعند وصولنا إلى أعلى التّل، وجدنا أمامنا وادي ألوند، بالكامل النّابع من نهر ديالي، وظهرت لنا واحة خانقين على ضفاف النهر، إلّا أنّنا انحدرنا بعضَ الشّيء إلى الساحل، فتختفي- خانقين- خلف تلّ صغير محاذٍ للنّهر، وبعد مضيّ ساعتين ونصف نصل إلى الأسفل.

ونلاحظُ القرية من جميع أطراف النّهر الذي تنيره أشعّة الشمس قبل رحيلها. وعلى يميننا نرى غدير ألوند، ذا المياه العميقة، ويبلغ عرضه حوالي ثلاثين مترًا، وهو يخرج من غابةِ نخيل محصورة ضمن هضبتيْن ذات ارتفاع عمودي. وقد كانت أغصانُ النّخيل المتشابكة تدنو إلى أعالي المياه بأغصانها البديعة، فتصل عناقيد التّمور إلى المياه، فتجدها أصبحت مثلَ عناقيد ذهب لا حصر لها.

ورأينا بقايا جسرٍ صغير، أعمدتُه ساقطة في التيار، تبدو كأنّها تتعارك مع دوّار الماء.

وفجأة، يصبح غدير ألوند أكثرَ اتّساعًا وهدوءًا، بينما نشاهد على نفس الضفة، ولكنْ على بُعد قليل، منظرًا ساحرًا لساحل النّهر، حيث نرى البيوت مرصوفة بانحناء جميل، والأعمدة تغمرُها المياه، إلى جانب بقايا معبدٍ أو حمّام، وآثار سدّ أو رصيف صغير.

لقد اقترب الليل، وكلّ منّا يقوم بالعمل الأخير، وبعض النساء يأتين لاستقاء الماء، وأخريات يغسلنَ الجياد والثّيران والحمير والجمال للشرب. ويبدو أنّ جميع أهالي القرية على موعدٍ عند النهر بعد نهار شاقّ وحار.

كان علينا عبورُ النهر، ولكنّنا وجدنا قاعَه عميقًا جدًّا، ونحن نخشى أن نعرض الأمتعة للبلل، بينما نكونُ في حاجة إليها، لذا اتّبعنا إحدى طرق القرية، حيث إنه لم يكنْ باستطاعتنا محاذاة الهضبة، ثمّ انحدرنا إلى مجرى النّهر لنبحث عن مكان جيد للعبور.

ويبدو أنّ أهالي القرية يحبّون الأوروبيّين كثيرًا، فقد كانت النساء يشتمننا، والأطفال يرموننا بالرّمال. ولم نعثرْ على قاع جيّدٍ نعبر منه سيرًا، لذا رجعنا إلى نقطةِ الانطلاق، حيث يوجد قفّة تستخدم للعبور. وضعنا جميع أمتعتنا فيها، وعبرت الجياد النّهر خوضًا، وقد غمرتها المياه حتّى فوق الصدر، ثمّ حملنا أغراضنا في الضّفة الثانية، وبعد دقائق وصلنا إلى الخان.

كان هاملن متألّمًا للغاية، وألمه يزدادُ مع مرور الوقت، وقد سمعت أنه يوجد هنا طبيبٌ أوروبّي، كما في جميع المدن الحدودية الواقعة على الطرق الرئيسية، فطلبتُ أن يأخذوني إليه.

لحُسن الحظّ كان هذا الطبيب يتحدّث اللغة الفرنسية، وقد كان ألمانيّ الجنسية، وأخبرني أنه أتمّ دراسته في دوقية أولنبورك، ويدعى مسيو سآب.

ويجب أن أقول إنّ هذا الطّبيب قدّم لنا كلّ الخدمات الممكنة التي يمكن أن يقوم بها مواطنٌ لمواطن آخر من بلده. كانت السّاعة الثامنة عندما قدّمت له نفسي، وكان قد أوشك على الانتهاء من العشاء، فأدخلني وقدّم لي في بادئ الأمر كأس خمر، بعد مضي ستّ عشرة ساعة وأنا ممتطيًا الفرس، ولم أذق طعامًا سوى حلوى المنّ وكأس العرق؛ لذا لا عجب أنّ هذه الخمرة بدت لي كالسلسبيل.

ثمّ أخذته وذهبنا معًا للخان، حيث يوجد هاملن، وعندما فحصه، قال إنّه يخشى من تقرّح في العقب، ونصحنا بالاستمرار على اللّزقة، وأوصانا بالاحتراز

قدر المُستطاع أثناء المسير، وبما أنّنا نسير ببطء، فسيكون من السّهل أن نحافظ على السّاق ملفوفة برباط غليظ.

لقد علمت أنّ هذا الطّبيب في خانقين منذ عام، وقد أخبرني أنّه وحيد تمامًا، حيث إنّ الأهالي هنا متعصبون جدًّا، وبالرغم من العلاج الذي يقدّمه لهم، وبالمجان في معظم الأحيان، إلّا أنّه لم ينجح في كسب مودتهم، لدرجة أنّه لا يستطيع التجوّل في أنحاء القرية دونَ سلاح، حيث إنّه قد تعرّض لمحاولات اغتيال عدّة مرّات أثناء عودته من عيادته الطبية.

وعند حلول اللّيل، لا يمكنه الخروج إلّا إذا كان راكبًا حصانه، بل ويرافقه خادمان، وعندما يذهب للصّيد يرافقه جنديّان وخدم.

٢ تشرين الثاني (نوفمبر):

استيقظْنا هذا اليوم في السّاعة الثّالثة، وسافرنا في الساعة الخامسة، وكان برفقتنا أربعة جنود، أحدُهم عريف، وهُم تحت إمرتنا. وقد كان الطبيب سآب قد قام بكلّ كرم بالاتصالات اللّازمة ليؤمّن لنا حماية جيدة، كما أنّه أرسل أحدَ خدّامه للتأكّد من أنّه لا ينقصنا أي شيء.

رحل الظّلام سريعًا، وأشرقت الشّمس، والمنظر لم يتغيّر مطلقًا، فليس أمامنا سوى صحراء فقط، ولم يتبقّ أيّ أثر للسّهل، وبدأنا نجتاز أوّلَ مرتفعات الكتلة الضّخمة لكردستان الفارسي.

وفي السّاعة الثّامنة كنّا على الحدود التي يحرسها شرطة- جندرمة- وموظفو مكوس- جمارك- ويقيمون في قلعةٍ صغيرة. وهذه الشّرطة مصفوفة على امتداد مسافةٍ ما، كل خمسمائة متر، للحراسة ومنع قوافل التهريب من العبور. تركنا

الحرّاس، واستمررنا وحدنا في أرضٍ قاسية لا زرع فيها، وكلها عبارة عن صخور صحراوية، وطريق صخري.

وفي الأفق تظهر الجبالُ بمنظر غريب لمساحات أراضي متوازية ذات ألوان تتغيّر من اللون الوردي حتّى الأخضر، ثمّ وصلنا إلى مجرى ألوند، وبعد ذلك ترتفع قرى بها بضعُ بيوت مُقامة من الحصران والقصب. وفجأة نشمّ راحة كريهة، وما تلبث أنْ تزداد كلّما واصلنا تقدّمنا، وسرعان ما اكتشفنا أنّها قافلة كبيرة من قوافل الموتى.

حيث يعتقد الفرس أنّه للدّخول إلى الجنة- الفردوس- يكفي المرء أن يُدفن قرب ضريح أحدِ الأولياء، سواء كان الحسين أم عليًّا- رضي الله عنهما-. ويعتقدون أن الشّخص الأكثر شرًّا قد يدخل الجنة بكلّ تأكيد إذا استطاع دفعَ نفقات سفره بعد موته، بينما الرجل الأكثر نزاهةً قد لا يدخلها وهو مدفون في بلده.

لذا تجد أنّ بعض القوافل المنظّمة تقوم بنقل آلاف الجثث من أبعد أطراف فارس ليتمّ دفنها في بغداد قرب أضرحة الأولياء. فيتمّ وضع الجثث في صناديق خشبيّة صغيرة، أو تلفّ بكلّ بساطة في بُسط أو طنافس، وتعلق الأجساد اثنين اثنين أو ثلاثة أو أربعة على ظهر الحصان، ونتيجة لدرجة الحرارة المرتفعة، فلا عجب من انبعاثِ هذه الرائحة الكريهة من الجثث في نهاية سفرٍ يدوم لمدّة أسابيع.

كما أنّ الجثث تنزل وتحمَل في كلّ مرحلة مثل الأمتعة تمامًا، وتتوقف هذه القوافلُ على بعدِ ما لا يقلّ عن خمسة أو عشرة كيلومترات عن القرى التي تسمها، وبعد تحرّكها تترك المكان الذي خيّمت فيه فاسدًا حتّى المساء.

في السّاعة الحادية عشرة وصلنا إلى قصر شيرين، وقد كنّا ننوي البقاء بها قليلًا، ولكنّنا وجدنا أنّ الخان قذرٌ للغاية، وكان الوقت لا يزال مبكرًا؛ لذا قرّرنا قطع مرحلةٍ أخرى.

أصبحنا الآن في بلاد فارس، ورغم أنّ هذه المنطقة يقطنها الكرد إلّا أنّها آمنة إلى حدّ ما، فرغم أنّ السكان محاربون ومتوحشون، إلّا أنّهم نزيهون.

وبالرّغم من اتّصاف كرد الشمال الغربي وكرد الأتراك بالشدة والقسوة إلّا أنّ كرد الجنوب الشرقي وكردَ فارس يتّصفون بالتسامح والطيبة، ومعظمهم على مذهب على الله.

ليس عليك سوى أنْ تتركهم يفعلون ما يريدون، حتّى يتركوك بدورهم تفعل ما تريد، ولديهم الكثيرُ من التسامح الدّيني، ورغم ذلك فهُم لا يحبّون الأوروبّيين، وقد شعرتُ في هذه المدينة الحدودية الواقعة على بُعد خطوتين من تركيا، بهذا الحقد المزمن أكثر ممّا شعرت به في جميع بلاد فارس، فالأهالي هنا لا ينظرون إلينا بلطف؛ بل ترى في وجوههم نظرة ساخرة ومزعجة.

تركتُ هاملن يستريح في الخان حيث تستريح الحيوانات، وذهبت أنا إلى الوالي.

وقد قام هذا الوالي ببناء منزلٍ جميل فوق مرتفع يطلّ على المدينة في الجنوب الشّرقي.

وهو من نفس الطراز، وأيضًا مقام من نفس الحجارة الترابية، مثل جميع البيوت التي شاهدناها في كردستان تركيا والحكارين أيضًا. وقد كان هذا المنزل عبارة عن بناءٍ مربّع الشكل، طوله عشرون مترًا، وعرضه عشرة أو خمسة عشر مترًا، وله باب واحدٌ للدخول، ونوافذه صغيرة، وسطحه مستوٍ، وبه فناء داخلي.

إنّ هذه القصور أو البيوت يُطلق عليها اسم خان، وهذا الخان يتمتّع بشكل عجيب لكي يحميه من غارات القراصنة، فهو مبنيّ بشكل مُحكم على مرتفع بسيط، ولكنّه صعب الاختراق.

استقبلني الوالي بشكلٍ ممتاز بعد أن قدّمت له أوراقي التي أعتقد أنّه لم يستطع قراءتها، لكنّه رأى الأختامَ الرسمية الموجودة عليها، وبعدها منحني كلَّ ما طلبت منه بعد جهدٍ كبير بفضل ترجمة يوفان وقاموسي الفرنسي التركي.

إنّ منظري وأنا أُمسك زمامَ فرسي ومثقلًا بأسلحتي وسوطي، وأقلب القاموس باحثًا عن كلمة لا أفهمها في معظم الأحيان؛ منظر هزلي جدًّا، ويدعو للضحك.

عدتُ إلى الخان، وبعد بضع دقائق وصلني من الوالي طبقٌ يحتوي على فواكه، وجبن أبيض، وحليب، وخبزات رقاق، ولأشكره على حُسن صنيعه أرسلت له بطاقتي إلى جانب بعض الهدايا التالية: سكين، بوصلة الإيبينال، فقام هو الآخر بإرسال جندي لمرافقتنا.

أعطيتُ أوامري بالرّحيل، فإذا برئيس أدلّاء القافلة يرفض أنْ يجهز حصاني، ويريد البقاء في هذا المكان، فطلبتُ من يوفان أن يسرج هو حصاني، وبمجرّد أن وضع السّرج على البغل هجم عليه صاحبُ البغل، فطرحه أرضًا بكلّ قسوة، وسحب سكّينًا، وهدّد أنّه سيشقّ بطن حصانه حتّى لا ننطلق. لم يكن أمامي سوى أن أنقضّ عليه وأمنعه من القيام بهذا الأمر الجنوني، وضربته بقبضةِ يدي فجعلته يقع في الغدير، حتّى بدا منظرُنا عنيفًا، واحتشد الأهالي يشاهدوننا.

وأخيرًا سحبتُه من يده واتّجهت به إلى الوالي، ولم أكدْ أسير سوى مائة خطوة، وهو يرتجف في يدي مثل الورقة؛ إلّا ووجدته قد ركعَ على ركبتيه وراح يقبّل قدمي راجيًا أن أسامحه وأغفرَ له، حيث إنّه كان يعلم جيدًا أنّ الوالي سوف يعاقبه بما لا يقلّ عن خمسٍ وعشرين ضربة عصا، وأخيرًا أشفقت عليه وعفوتُ عنه. عدنا إلى الخان، وفي خلال عشر دقائق كان كلّ شيء جاهزًا، فانطلقنا في طريقنا.

وعند اجتيازنا لطرق القرية، صادفنا نعشًا جميلًا موضوعًا بشكل معاكس على ظهرِ فرس مهيب، ويرافقه فرسان مُرتدين ثيابًا فاخرة ومعهم بعض الجنود. وقد علمَتُ أنَّه أحدُ الأسياد الكبار يرافقه أصدقاؤه إلى كربلاء ليدفن بها بناءً على طلبه قبل وفاته.

لا أعلمُ كم من الأصدقاء في فرنسا سيرافقون أحدَ أصحابهم إلى المقبرة إذا استغرق الأمرُ أكثرَ من شهر على ظهور الجياد؟

إنّ قصر شيرين عبارة عن قصبة فقيرة تقع على الحدود الفارسية، ورغم مرور نهر ألوند فيها إلّا أنّها شاحبة وجرداء، لم نرَ فيها أيّ أثر للنبات.

فهرس المحتويات

الفصل الثالث

الموصل- نينوى- خورسباد

لدى الدومينيكيّين، المونسينور ألتماير، الدّيوان، قنصل إنجلترا، المنارة المسيحية، برج السّاعة، الموصل والشرق، تأسيسها، أطراف الموصل، النبي يونس، طرقات الموصل، الأسواق والمقاهي، الاسترخاء (الكيف)، العربات، المونسينور (المطران) بهنام بني، الأكلاك، الخشبُ في الموصل، جسر قرب النهر، المقابر، مدارسُ الأخوات الراهبات والآباء (الدومينيكيّين)، ومطبعتهم، الأسطرنجيلية، السّريانية، الكلدانية، الأسوار، تغيّرات مجرى دجلة، حبّة (بثور) الموصل، بناء الكلك، زيارة السلطات، استقبال على الطريقة التركية، السكاير، غداء في القنصلية الإنجليزية، قصّة دبة، ضفافُ دجلة، بطائح وغدران، دراج، أسماك، عيون كبريتية، النّائحات- المعدّدات- زيارة أطلال نينوى وخورسباد، تلّ قوينجق، بوتا، خورسباد، الحفريات، بيوتُ مزارعين فلّاحين، حائط طابوق مرسوم، تلول تخفي العنقاء، مذبح ثلاثيّ الأرجل، كيف حفظتُ الأطلال، تأسيسُ القصور، الغرف، الجدران، السطوح، الأيّام، مجملُ القصور، سنحاريب وسرجون، الكتابةُ المسمارية، وأنواع الألفباء المختلفة، وكيف اكتشفت، مسيو سيوفي، مسجدُ السلطان لؤلؤ، الصابئة، من الموصل إلى البحر المتوسط، بالمير (تدمر)، الدّير، سنجار، أورفة، باعة السوق، تجهيزُ الكلك، الرّحيل عن الموصل.

الفصل الرابع
من الموصل إلى بغداد

الكلك، وضعه، الطريقُ البري من الموصل إلى بغداد، عيون نفط (قار)، حمّام علي (حمّام العليل)، نمرود، التّنقيبات، القصور المطمورة، حلاقة الرجال، برودة اللّيالي، عبور شلال، ترجماننا الجديد، مصبّ الزاب الكبير، جنود طهاة، هجوم ليلي، قلعة الشرقاط، عودة- حملة- العشرة آلاف، حقول على ضفاف دجلة، كيف تحفظ الغلات، جبل حميرين، زورق بخاري فاشل، تكريت، سعر خروف، أمام- دور- الدّوار-، سامراء، القفة، قوافل (كروانات) فارسية، أشجار النخيل الأولى، تلّ محاسي، سنديا، حويش، البساتين، الكاظمية (كاظمين)، الوصول إلى بغداد. ٩٧-١٢٠

الفصل الخامس
بغداد

الوصولُ إلى القنصلية، فندق أوربا، نانو نوري، الحنّاء، الأوروبّيون في بغداد، الآباء الكرمليّون، النواقيس والقرآن، برج بابل، بغداد، الضّواحي، الأسوار، المراقد والجوامع الرئيسية، زيارة إلى خشمين، الترامواي، جامعُ الإمام موسى، تعصب النّاس، عشاءٌ لدى السيد أصفر، البريدُ عبر الصحراء، عرب شمر الحمويون، إرسال الرزم، ومصاعب ذلك، شاه فارس في زيارة إلى بغداد، رفضُ الوالي إعطاءنا جندرمة، مجاميعنا تسرق، الرحيلُ عن بغداد. ١٢١-١٤٠

المركز الثقافي الآسيوي

• مؤسّسة بحثيّة مستقلّة، تتبع جمعية خريجي معهد الدّراسات والبحوث الآسيوية، تخضع لقانون الجمعيّات الأهلية المصري، مُشْهرة في وزارة التضامن الاجتماعي برقم ١٣٢٨ لسنة ٢٠٠٢م.

• يتكوّن المركز الثقافي الآسيوي من الوحدات التالية:

١) وحدة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية.

٢) وحدة الدّراسات الإيرانية.

٣) وحدة الدّراسات التركية والعثمانية.

٤) وحدة الدّراسات الأرمنية والقوقازية.

٥) وحدة الدّراسات اليهودية والإسرائيلية.

٦) وحدة دراسات الشّرق الأقصى.

٧) وحدة دراسات الفنون والتّراث.

٨) وحدة دراسات تركستان الشّرقية- شينجيانج

• يهدف المركزُ الثقافي الآسيوي إلى عمل البحوث والدّراسات المتعلّقة بقارة آسيا في النّواحي التّاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكافّة النواحي الحضارية.

• يعمل المركزُ الثقافي الآسيوي على طباعة ونشر الدّراسات التي تنتجها وحداته المختلفة، كذلك الدّراسات التي يتقدّم بها الباحثون المتخصّصون في مجال اهتمامات وحدات المركز.

• يقوم المركز الثقافي الآسيوي بترجمة الإصدارات العالميّة الخاصّة بقارة آسيا وإصدارها في نشرات خاصّة.

• يسعى المركزُ الثقافي الآسيوي إلى إصدار عدّة سلاسل من الكتب والدوريات المتخصّصة، والتي تخدُم الدّراسات الآسيوية خاصّة، والثقافة الإنسانية بشكل عام.

• يمدّ المركزُ الثقافي الآسيوي يدَ التعاون للباحثين والمراكز البحثية والهيئات العلمية الأخرى؛ للقيام بالأنشطة العلميّة والندوات والمؤتمرات وعمل الأبحاث ونشرها.

harpgeneration@yahoo.com

(002) 01229365348